الفصل الثامن

الحرب في سورية والأناضول

خرجت مصر من الحرب اليونانية دون أن تظفر بفتوحات جديدة؛ ففي حين أن الحرب الوهابية قد انتهت ببسط نفوذها في جزيرة العرب، وضم إليها فتح السودان الشطر المكمل للدولة المصرية، فإن الحرب اليونانية لم تكسبها فتحًا جديدًا؛ بل انتهت بجلاء الجيش المصري عن بلاد المورة وعودته إلى مصر.

وقد أرادت تركيا أن تعوض محمد علي باشا بعض ما فقده في الحرب اليونانية، فأسندت إليه جزيرة كريت؛ لكن هذا العوض لم يكن ذا قيمة؛ إذ لم يكن من السهل إن تحكم مصر تلك الجزيرة أو تبسط سيادتها عليها أو تستفيد منها؛ لنزوع أهلها إلى العصيان، ولأنها كانت أرض فتن وثورات.

فلا غرو أن طمح محمد علي إلى ضم سورية إلى مصر، ولم يكتم نيته عن الحكومة التركية؛ فإنه طلبها منها تعويضًا عما تكبده الجيش المصري من الخسائر في حرب الموره، ولكن السلطان لم يجبه إلى طلبه، فاعتزم أن يناله بحد السيف، ورأى ضرورة ضم سورية إلى مصر لأنها كحاجز حصين بين الدولة المصرية والدولة العثمانية، وبها تتقي مصر شر تركيا إذا حدثتها نفسها بغزو مصر.

أسباب الحملة على سورية

إنَّ حرب الشام يصح اعتبارها حربًا دفاعية، وحربًا هجومية؛ أما كونها حربًا دفاعية فلأن محمد علي يعلم أن تركيا لا تفتأ تسعى لاسترداد مركزها في مصر ما وجدت سبيلًا إلى ذلك، وأن السلطان محمود لم يكن خالص النية نحوه، بل كان ينظر بعين الحسد إلى تقدم مصر وما كسبته من المكانة العالية، ولم ينس كذلك أن مصر امتنعت عن مساعدته في حربه مع الروسيا (سنة ١٨٢٨م)، فاضطغن السلطان على محمد علي باشا، وأخذ يتربص به لينتقم منه وينتزع منه حكم مصر، ولم يكن يحول بينه وبين ذلك سوى

ارتباك أحوال الدولة العثمانية وضعفها، فإذا ما سنحت الفرصة فإنه لا يتردد في التخلص من خصمه، فطموح محمد علي إلى فتح سورية كان الغرض منه أن يدافع عن مصر وعن مركزه فيها.

وإذا تأملت فيما كتبه الدكتور «كلوت بك» في هذا الصدد رأيت أنه يعبر عن وجهة نظر محمد علي في الحملة على سورية إذ يقول: «إن ضم سورية إلى مصر كان ضروريًّا لصيانة ممتلكات الباشا، فمنذ تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة، وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر، وقد رأينا فعلًا أن موقع البلاد الحربي لا يجعلها في مأمن من الغزوات الخارجية خصوصًا عن طريق برزخ السويس، فإذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابرت نجد أن سائر الغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس في عهد قمبيز وغزوة الإسكندر والفتح الإسلامي وغزوتي الأيوبيين والأتراك، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية؛ لأن حدودها ليست في السويس بل في طوروس».

فالحرب السورية من هذه الوجهة كانت إذن حربًا دفاعية.

لكنها كانت أيضًا حربًا هجومية، وكان الغرض منها التوسع في الفتح والسلطان، فإن محمد علي كان يطمح إلى ضم سورية منذ سنة (١٨١٠م)، وكان يأمل أن يصل إلى حكمها بموافقة السلطان،كتب المسيو «دروفتي» قنصل فرنسا في مصر، وكان من أكبر أعوان محمد علي، رسالة إلى حكومته سنة (١٨١١م) يقول فيها: «إن محمد علي يطمع في ولاية سورية، وقد قال لي يومًا: إنه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزانة السلطان، وقد أخذت فكرة الاستقلال تزداد رسوخًا عنده منذ استظهاره على أعدائه وقمعه فتنة الجند وتخلصه من الارتباكات المالية».

وقد أشار المسيو «دروفتي» في رسالة أخرى لحكومته إلى معدات الحملة المصرية على الوهابيين، فأظهر الشك فيما أضمر محمد علي منها، وهل يقصد بها الحجاز أم سورية، قال في هذا الصدد:

«إن جميع الاستعدادات التي يعدها الباشا تدل على أن الحملة تخترق الصحراء وتصل منها إلى سورية، ولا تزال غايتها الحقيقية سرًّا مكتومًا في ضميره، وخطته في هذا الصدد لم تتغير؛ وهي التأني ثم التصرف مع الأحوال بحسبها».

وقد طلب فعلًا من السلطان خلال الحرب الوهابية أن يعهد إليه بولاية الشام، وكانت حجته في ذلك أنه في حاجة إلى مدد منها لمعاونته على قتال الوهابيين.

ففكرة ضم سورية إلى مصر كانت إذن تختلج في نفس محمد علي باشا منذ سنة (١٨١٠م)، ولقد صرفه عنها انهماكه في الحرب الوهابية، ثم فتح السودان، ثم الحرب اليونانية، فلما انتهى من هذه الأخيرة أخذ يفكر في إنفاذ فكرته القديمة.

ومن الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد علي كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم إليها البلاد العربية في إفريقية وآسيا؛ ففي إفريقية قد استقل بمصر وفتح السودان، وفي آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية، وبطموحه إلى سورية أراد أن يؤسس الدولة المصرية الكبيرة.

ويؤيد هذه الفكرة رجحانًا بعض تصريحات فاه بها إبراهيم باشا خلال الحرب السورية، فقد ذكر المسيو «كادلفين وبارو» في كتابهما أنه بينما كان الحصار مضروبًا على (عكا) سئل إبراهيم باشا: إلى أي مدى تصل فتوحاته إذا تمَّ له الاستيلاء على عكا؟ فقال ما معناه: إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربي[1]. وقد قابله البارون «لبو الكونت» بالقرب من طرسوس بالأناضول سنة (١٨٢٣م) بعد عودته من

(١) «كادفلين ويارو»، «حرب مصر ضد الباب العالي في سوريا والأناضول» سنة ١٨٣١-١٨٣٣م، ص٤١٢.

كوتاهيه، وكان له معه حديث طويل، فذكر عنه «إن إبراهيم باشا يجاهر علنًا بأنه ينوي إحياء القومية العربية، وإعطاء العرب حقوقهم، وإسناد المناصب إليهم سواء أفي الإدارة أم في الجيش، وأن يجعل منهم شعبًا مستقلًّا ويشركهم في إدارة الشئون المالية، ويعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه، وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة بسورية، فإنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه، وقد قال لي: إن أباه يحكم مصر والسودان وسورية، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه، وإن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذي يعمل الآن على إتمام فتحها، وهو في صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية، ويعد نفسه عربيًّا، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها، وسأله كيف يطعن في الأتراك وهو منهم، فأجابه إبراهيم باشا على الفور: «أنا لست تركيًّا؛ فإني جئت مصر صبيًّا، ومنذ ذلك الحين قد مصَّرتني شمسها وغيَّرت من دمي وجعلته دمًا عربيًّا»[1].

فهذه البينات تدلك على ما اتجه إليه فكر إبراهيم باشا من تأسيس دولة عربية مصرية تجمع شمل الناطقين بالضاد وتحيي عهد الفاطميين والأيوبيين والسلاطين البحرية والبرجية حين كانت مصر تضم إلى رقعتها سورية وجزيرة العرب.

وكان لمحمد علي في فتح سورية أغراض اقتصادية؛ فإنه أراد استغلال مواردها من الخشب والفام والنحاس، تلك الموارد التي كانت مصر مفتقرة إليها، فهي في حاجة إلى الأخشاب للوقود ولبناء السفن الحربية والتجارية، وإلى الفحم والنحاس والحديد لترقية صنائعها، وخاصة بعد أن أنشأ محمد علي المصانع الكبرى «الفابريقات» التي تحتاج إدارتها إلى الفحم والحديد والنحاس.

(١) كتاب «مهمة البارون» لبوا لكونت، ص٢٤٨ و٢٤٩.

وكذلك كان يرمي إذا بسط نفوذ مصر في سورية أن يجند من سكانها في الجيش المصري؛ فيزداد الجيش عددًا وقوة.

تلك هي الأسباب الحقيقية التي نزعت بمحمد علي باشا أن يطمح إلى فتح سورية.

وقد كانت الظروف في سنة (١٨٣١م) ملائمة لإنفاذ مشروعه؛ فإن تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية، ثم من الحرب الروسية سنة (١٨٢٩م) مضعضة منهوكة القوى، وزاد في ضعفها كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية فيها، وقد ألغى السلطان محمود سنة (١٨٢٦م) فرقة الانكشارية التي كانت قوام الجيش العثماني؛ وذلك لما كانت عليه من الفوضى، وأبادهم، ولكنه لم يجد متسعًا من الوقت لينشئ بدلًا منهم جيشًا جديدًا نظاميًّا، بل كانت القلاقل والاضطرابات تحول دون إنفاذ عزمه، في حين أن محمد علي كان على تمام الأهبة للدخول في حومة الوغى، معتمدًا على الجيش النظامي الذي قضى سنوات عدة في إنشائه وتدريبه، وعلى الأسطول الذي أنشأه في ترسانة الإسكندرية. ولم يكن السوريون متعلقين بالحكم العثماني لكثرة ما عانوا من مساوئه ومظالمه، فلم يكن متوقعًا أن يلقى الجيش المصري في زحفه على سورية مقاومة من الأهالي، وخاصة لأن محمد علي باشا قد اجتذب إليه الأمير «بشير الشهابي» كبير أمراء لبنان منذ سنة (١٨٢٢م) وتوثقت بينهما العلاقات من ذلك الحين؛ إذ كانت الحكومة العثمانية قد عزلته من إمارة الجبل، فلجأ إلى محمد علي في مصر فتشفع له لدى الدولة فأصدرت عفوها عنه وحفظ له هذا الجميل، فكان له عضدًا كبيرًا في الحملة السورية، واستمال أيضًا الشيخ حسين عبد الهادي من زعماء نابلس ومصطفى أغا بربر[1] الذي عينه إبراهيم باشا أثناء الفتح متسلمًا لطرابلس، فكان الثلاثة من أعوانه في الفتح.

فمحمد علي لم يكن يخشى مقاومة من جانب الأهالي. أمَّا الجيش العثماني فكان يأمل أن يظهر عليه لتفوق الجيش المصري عليه بحسن النظام والتدريب وكفاية القيادة.

---

(١) ذكرهما مع الأمير «بشير الشهابي» البارون لبوا لكونت في رسالة عن سورية في عهد الفتح المصري، ص٢٢٨ من كتاب «مهمة البارون» لبوا لكونت.

الأسباب المباشرة للحملة

تلك هي البواعث الحقيقية للحملة السورية، والآن فلنعقب عليها بالأسباب المباشرة التي تذرع بها محمد علي باشا للزحف على الشام.

وبيان ذلك أن كثيرًا من الفلاحين المصريين قد فدحتهم أعباء السخرة والضرائب التي فرضها محمد علي باشا، فهاجروا جماعات إلى الأقطار السورية المتاخمة لمصر فرارًا من هذه المكاره، وتخلصًا من الخدمة العسكرية، وقد طم سيل المهاجرين حتى بلغ عددهم ستة آلاف من الفلاحين، وخشي محمد علي من عواقب هذه الهجرة وما تفضي إليه من المضار الاقتصادية، فطلب من عبد الله باشا والي صيدا[1] أن يرجع المهاجرين المصريين إلى بلادهم، فرفض عبد الله باشا طلبه محتجًّا بأن المصريين من الرعايا العثمانيين، ولهم الحق أن يقيموا أنى شاءوا، فغضب محمد علي من هذا الجواب، وكتب إليه يتوعده وينبئه أنه قادم ليعيدهم جميعًا يزيدون واحدًا، وهو عبد الله باشا ذاته.

وكان عبد الله باشا ذا نفوذ كبير في ولايته، فهو حاكم شبه مستقل فيها، وتمتد سلطته إلى بلاد فلسطين وقسم من الشام.

وكان هذا المركز مما جعل لمحمد علي باشا مندوحة في تجريد الحملة عليه، فلم يكن في الظاهر محاربًا لتركيا ولا مجاهرًا بعصيانها. وما فتئ خلال الدور الأول من الحملة يتظاهر بإخلاصه، ويزعم أنه إنما يحارب حاكمًا شبه مستقل خارجًا على الدولة، ومما يجدر ذكره أن محمد علي باشا كانت له يد سابقة على عبد الله باشا هذا، فقد عزلته الحكومة التركية من ولاية صيدا سنة (١٨٢٢م)، فتشفع له محمد علي فعفت عه وأبقته في ولايته؛ ولكن عبد الله باشا لم يحفظ هذه اليد لمحمد علي إذ كان من الباشوات الكثيري المطامع، فقد استأثر بالسلطة في ولاية صيدا، وطمع كذلك في

(١) ولاية صيدا قاعدتها عكا، ولذلك تسمى أحيانًا ولاية عكا.

ضم ولاية الشام إليه، وكان يخشى على سلطته من امتداد نفوذ محمد علي، فلم يراع جانبه ولم يكترث لغضبه، وكان فضلًا عن إيوائه المهاجرين المصريين يساعد قوافل التجارة على تهريب المتاجر من الجمارك المصرية وتفويتها من طريق صحراء سوريا فأضر ذلك بالخزانة المصرية.

فلما امتنع عن إرجاع المهاجريين المصريين صمم محمد علي أن ينفذ الحملة على سورية.

تأليف الحملة

كانت الحملة المصرية على سورية مؤلفة في بداءتها من (٦) ألايات من المشاة وأربعة من الفرسان، وعدتهم (٣٠٠٠٠) مقاتل بقيادة إبراهيم باشا، مجهزين بأربعين مدفعًا من مدافع الميدان وعدة من مدافع الحصار، وما يكفيهم من الذخائر والمؤن، واحتشد جنود الحملة؛ فريق في ضواحي القاهرة (بالخانكة) وفريق في الإسكندرية.

واشتركت العمارة المصرية في الحملة، فنقلت جزءًا من الجيش بطريق البحر، وحملت المدافع الضخمة والذخيرة والمئونة، وخاضت في بعض المواطن غمار القتال، وكانت مؤلفة من (١٦) سفينة حربية و(١٧) سفينة نقل معقودًا لواؤها للأميرال عثمان نور الدين بك (باشا) وهو من خريجي البعثات المصرية التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا، ونبغ في الفنون الحربية والبحرية، وكان ناظرًا للمدرسة الحربية التي أنشأها، ثم جعله محمد علي أميرالًا للأسطول المصري لما عهد فيه من الكافية والإخلاص، وسنعود إلى الكلام عنه.

تمت معدات الحملة في أوائل سنة (١٨٣١م)، وكان موعد زحفها في صيف تلك السنة، ولكن وقوع الوباء (الكوليرا) في مصر وقتئذ أخر زحف الحملة، فقد فتك بالأهالي فتكًا ذريعًا، ودام فتكه أربعة وثلاثين يومًا، ومات به نحو (١٥٠) ألف

نسمة، واستطار في الجيش، فأودى بحياة خمسة آلاف من الجنود[١]، فتوقفت الحملة عن السير حتى تكافح الحكومة هذا الوباء.

سير الحملة

ولما جاء شهر أكتوبر سنة (١٨٣١م) أصدر محمد علي أوامره بتحرك الحملة، وكان خط سيرها أن يسير معظم الجيش برًّا عن طريق العريش إلى حدود سورية، وأن تقل العمارة إبراهيم باشا القائد العام وأركان حربه وجزءًا من الجيش والمدافع الضخمة والذخيرة والمئونة من الإسكندرية إلى يافا.

ففي اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة (١٨٣١م)[٢] بدأ الجيش البري يتحرك من معسكر (الخانكة) بقيادة إبراهيم باشا يكن[٣] قاصدًا الحدود السورية مارًّا ببلبيس، فالقرين، فالصالحية، فقطية، فبئر العبد، فمسعودية، فالعريش حيث استراح بها يومًا، ثم دخل التخوم السورةي فاحتل خان يونس.

احتلال غزة ويافا وحيفا

واحتل (غزة) بعد أن فرت منها الجنود العثمانية، ثم زحف على (يافا) فاحتلتها الحامية التركية واحتلها الجيش المصري، وفي غضون ذلك أقلعت العمارة المصرية من الإسكندرية تحمل باقي الجيش وتقل القائد العام إبراهيم باشا يصحبه أركان حربه، ومنهم الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي، وكان لم يزل بك) وعباس حلمي باشا[٤].

(١) كان عدد الجيش بلغ وقتئذ نحو (٩٠) ألفًا.

(٢) كما ورد في كادلفين وبارو، ص٦٢.

(٣) هو الذي تعبر عنه المراجع الفرنسية بإبراهيم باشا الصغير؛ تمييزًا له عن إبراهيم باشا ابن محمد علي.

(٤) هو عباس باشا الأول الذي تولى الحكم عقب وفاة إبراهيم باشا.

وصلت العمارة إلى يافا، ثم إلى حيفا حيث ألقت مراسيها وأنزلت بها الذخائر والمدافع، والتقت القوات التي جاءت برًّا بالقوات الآتية بحرًا، واتخذ إبراهيم باشا (حيفا) قاعدة للحركات العسكرية وجمع فيها الذخائر والمئونة وشرع في مهاجمة عكا.

حصار عكا (نوفمبر سنة ١٨٣١م)

كانت عكا على جانب عظيم من المنعة، ولا غرو فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها، وقد زاد أحمد باشا الجزار في استحكاماتها القديمة بعد انسحاب الفرنسيين من سورية فصارت أمنع مما كانت، فكان عبد الله باشا مطمئنًا إلى امتناعه بها، واثقًا من عجز الجيش المصري عن اقتحامها، وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل، فاعتزم أن يدافع عنها دفاع المستميت.

زحف الجيش المصري على عكا وضرب عليها الحصار منذ يوم (٢٦) نوفمبر، واشتركت العمارة المصرية في حصارها من البحر، فكان الحصار مضروبًا عليها برًّا وبحرًا، وأطلقت مدافع البر والبحر قنابلها على أسوار عكا وحصونها؛ ولكن الحصون جاوبتها بنار حامية وأحدثت أضرارًا ببعض السفن المصرية مما اضطرها إلى الرجوع للإسكندرية لإصلاح ما أصابها من العطب، فاستعصت عكا على الجيش المصري، وانقضت ثلاثة أشهر دون أن ينال منها منالًا، وأخذ إبراهيم باشا في خلال هذه المدة يحتل المواقع المهمة في ولاية صيدا وما حولها، فاحتلت فرقة من الجنود المصرية بقيادة «حسن بك المناسترلي» صور وصيدا وبيروت وطرابلس، واحتلت كتيبة أخرى مدينة (القدس) وكان الجيش كلما نزل ببلدة سلمت له بدون قتال.

موقف تركيا

اضطربت تركيا أمام زحف الجيش المصري، وبادرت في بادئ الأمر إلى إرسال مندوب عنها إلى محمد علي باشا يطلب إليه الكف عن القتال، وكان الباشا يعلم بارتباك أحوال تركيا وعجزها عن حشد جيش يصد زحف الحملة المصرية، فأخذ يماطل في الجواب، وتظاهر بالإخلاص للدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه أرسل إلى

إبراهيم باشا يأمره بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يفتحها قبل أن يصل الجيش التركي لنجدتها إذا فكرت تركيا في إمدادها.

وقد حشد الباب العالي نحو عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والي طرابلس، وعهد إليه رفع الحصار.

فزحف الجيش العثماني يرمي إليها، وضم إليه كل من لقيهم في طريقه من جموع الأكراد والعرب.

علم إبراهيم باشا بتحرك هذا الجيش، فعقد مجلسًا حربيًّا من نخبة ضباطه وأركان حربه ليتدبر في الأمر، فاستقر رأيه على أن يترك حول عكا القوة الكافية لمتابعة الحصار، وأن يتحرك بالجزء الآخر من جيشه ليصادم الجيش التركي في الطريق، ويتغلب عليه قبل أن يصل إلى عكا.

تقدم عثمان باشا يقود بضعة آلاف من جنوده وانتهز فرصة اشتغال إبراهيم باشا في حصار عكا، فهاجم طرابلس التي كانت تحتلها حامية مصرية فدخل المدينة، ولكن جنود الحامية ردوا المهاجمين على أعقابهم، على أن مركزهم لم يلبث أن تحرج بازدياد قوات الأعداء، وصارت طرابلس مهددة بسقوطها في يد الترك، فبادر إبراهيم باشا إلى نجدتها وسار إليها بطريق الساحل، فلما اقترب منها ارتد عنها عثمان باشا.

انتصار المصريين في الزراعة (١٤ إبريل سنة ١٨٣٢م)

تعقب إبراهيم باشا الترك إلى حمص، ثم رأى أن يرجع إلى (بعلبك) ليمتار منها بالذخيرة الكافية قبل أن يمضي في مطاردة الجيش العثماني، فوصل إلى سهل الزراعة[١].

وقد توهم عثمان باشا أن هذا التراجع علامة الضعف، فتقدم لمهاجمة الجيش المصري، فالتقى به في سهل (الزراعة)، ومع أن الجيش العثماني كان أكبر عددًا إلا أنه دون الجيش المصري في النظام وكفاية القيادة.

(١) قرية جنوبي حمص، انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل.

كان جيش عثمان باشا مؤلفًا من فرسان العرب والأكراد، فهجموا على الجيش المصري وأحاطوا به من كل جانب، وخيل لهم أنه أصبح في قبضة يدهم؛ لكن إبراهيم باشا بمعاونة سليمان بك (باشا) الفرنساوي رتب الجنود المصرية على هيئة صفوف منتظمة متراصة، ووضع وراءها المدافع حتى لا يراها المهاجرون، فانخدع القائد التركي بهذه الحيلة وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية، فلبثت هذه ساكنة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون وراء المدافع وانفجرت هذه بقنابلها فحصدت المهاجمين مشاة وركبانًا، فوقعت بهم الخسائر الفادحة واختل نظامهم وتفرق جمعهم ونكصوا إلى الوراء، فسار المصريون في أعقابهم حتى دفعوا بهم إلى نهر العاصي[1] حيث غرق الكثير منهم. وانتهت المعركة بهزيمة الجيش التركي، وارتد عثمان باشا وجنوده إلى مدينة (حماه) ومكث بها كي يتلقى المدد، أما إبراهيم باشا فقد عاد بعد واقعة (الزراعة) إلى بعلبك يتأهب لاستئناف الزحف.

وفي خلال ذلك اغتنم عبد الله باشا فرصة نقص القوات المحصرة لعكا؛ إذ هبطت إلى عشرة آلاف فخرج من معاقله، وهاجمهم وظهر عليهم، واستولى على الكثير من مدافعهم، على أنَّ إبراهيم باشا لم يعبأ بهذا النصر الذي ناله عبد الله باشا لوثوقه أنَّ النصر الحاسم هو فوزه على جيش عثمان باشا.

(١) نهر ينبع في لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماه وأنطاكية، ويصب عند السويدية، انظر موقعه على الخريطة الملحقة بهذا الفصل.

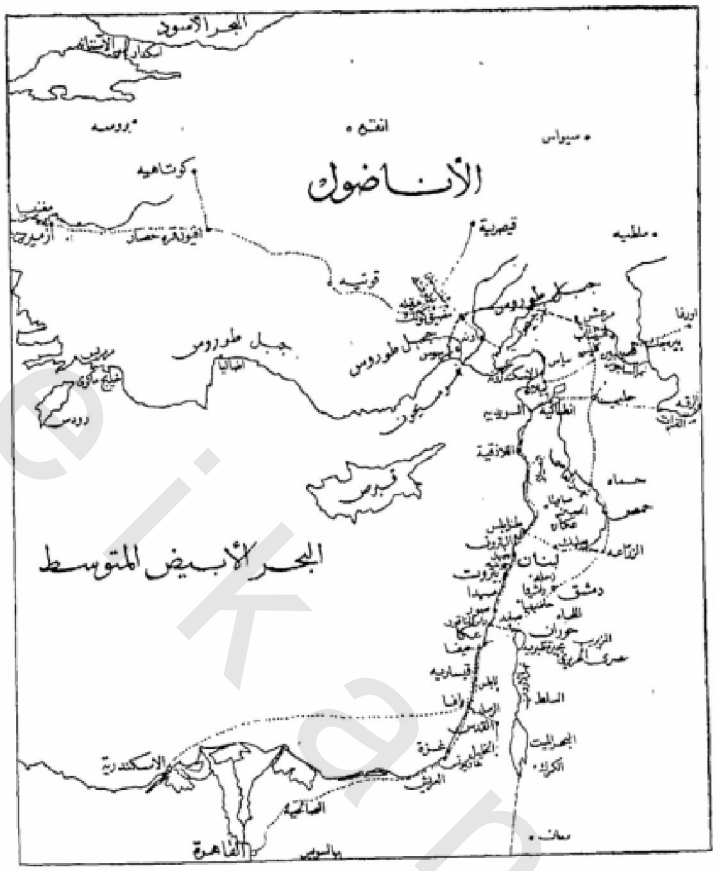

خريطة الحرب في سورية والأناضول

وفيها بيان المواقع والبلاد التي ورد ذكرها في الفصل الثامن، وقد بينا على الخريطة خط سير الحملة العصرية برًّا وبحرًا، ورسمنا بها حدود مصر الشمالية (التقريبية) طبقًا لاتفاق (كوتاهية) سنة (١٨٣٣م)، وكانت هذه الحدود تبدأ من مجرى نهر الساجور أحد روافد الفرات وتمتد شمالًا بغرب إلى مضيق (كولك) بجبال طوروس، ثم تنحدر جنوبًا إلى البحر الأبيض.

ورسمنا أيضًا حدودها الشمالية التي قررتها الدول في معاهدة لندره سنة (١٨٤٠م) ولم يقبلها محمد علي كما سيجيء بيانه، وكانت تشمل فلسطين وتبدأ من رأس الناقورة شمالي عكا إلى مصب نهر السيسبان في شمالي بحيرة طبرية، ثم تتبع الشاطئ الغربي لتلك البحيرة، فالضفة اليمنى لنهر الأردن، فالشاطئ الغربي للبحر الميت، ومن نهايته تمتد الحدود جنوبًا على خط مستقيم إلى رأس خليج العقبة على البحر الأحمر، ثم تتبع الشاطئ الغربي لخليج العقبة، ثم الشاطي الشرقي لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها.

فتح عكا (٢٧ مايو سنة ١٨٣٢م)

ومكث إبراهيم باشا في بعلبك يرقب حركات الجيش العثماني؛ مخافة أن يعاود كرَّة الهجوم، ولكنه ما لبث أن علم أن عثمان باشا أنفذ يطلب المدد من الأستانة، وهذا دليل على ضعف مركزه، ولما كان المدد لا يمكن أن يصل إلا بعد شهرين إذا أعجله الباب العالي، فقد اطمأن إبراهيم باشا من هذه الناحية، وعاد إلى (عكا) وشدد الحصار عليها من البر والبحر، وساعده في ذلك العرب والدروز والموارنة الذين أتوه طائعين.

حمل إبراهيم باشا على المدينة وأخذ يرمي سورها بالمدافع القوية، وما زال الضرب مستمرًّا حتى تصدع السور وفتحت فيه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة، وعندئذ صمم إبراهيم باشا على مهاجمة المدينة بجيشه وحدد للهجوم يوم (٢٧ مايو سنة ١٨٣٢م).

ففي صباح ذلك اليوم حملت الجنود المصرية على الثغرات الثلاث، فاستولوا على اثنتين منها، وتردد الجنود الذين قصدوا الاستيلاء على الثغرة الثالثة ولقوا مقاومة شديدة، فارتدوا إلى الوراء، فلما أبصر إبراهيم باشا ارتدادهم بادر إلى نجدتهم بجزء من الاحتياطي، وتقدم هو والجنود شاهرًا سيفه، فدبت الحمية في نفوسهم وعادوا إلى الثغرة فاقتحموها، ودار قتال استمر حتى المساء، ودافعت الحامية دفاعًا مجيدًا، وأبدى الفريقان شجاعة كبيرة إلى أن عظمت خسائر الحامية وكلت عن مواصلة الحرب، فطلب عبد الله باشا التسليم وسلم المدينة في مساء ذلك اليوم.

وبذلك انتهى حصار عكا بتسليمها للجيش المصري بعد أن استمر ستة أشهر، وقد وقعت بالفريقين خسائر فادحة، فبلغت خسائر الجيش المصري أربعة آلاف وخمسمائة قتيل، وخسرت الحامية (١٤٠) قتيل، وهي خسارة تدل على شدة ما احتمله الفريقان، فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين، فإن عكا هي

التي امتنعت على نابليون منذ نيف وثلاثين سنة، وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبًا، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري.

ومن الواجب تقديرًا للحقيقة أن ننوه بأن العقبات التي اعترضت نابليون في حصار عكا كانت أشد وأبلغ مما اعترض الجيش المصري، فإن نابليون حاصر عكا من البر، وكان الأسطول الإنجليزي يدافع عنها من البحر ويمنع مواصلات الجيش الفرنسي من هذه الناحية، ولم يجد نابليون أمامه سوى طريق الصحراء الشاق، فانقطع عنه المدد، بينما كان الجزار يتلقى المدد والمئونة والذخيرة بحرًا، أمَّا الجيش المصري فقد عاونته العمارة المصرية من البحر، فكانت المدينة في حصار محكم برًّا وبحرًا، فضلًا عن أن إبراهيم باشا كان على اتصال مستمر بثغور مصر وسواحلها بواسطة العمارة المصرية، واستطاع أن يتابع الحصار ستة أشهر كاملة، فإبراهيم باشا كان من هذه الوجهة أكثر توفيقًا من نابليون، على أنه لا يغرب عن البال أن ما أبداه الجنود المصريون، من الجلد والصبر على مكاره القتال، وما امتازت به قيادتهم من الدربة والكفاية، كل ذلك كان له الفضل الأكبر في ذلك الفتح المبين.

وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر، فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات.

أمَّا عبد الله باشا والي عكا بعد أن سلم نفسه تلقاه إبراهيم باشا بالحفاوة والإجلال، وأرسله إلى الإسكندرية حيث أحسن محمد علي مثواه وأسكنه في قصر خصص له، وحفه بالرعاية والإكرام[1].

(١) يقول الدكتور مشاقة في كتابه «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» ص١٠٤: إنَّ عبد الله باشا طلب أن يأذن له محمد علي بالذهاب إلى الحجاز، فذهب إليه ومات هناك.

فتح دمشق (١٦ يونية سنة ١٨٣٢م)

اعتزم إبراهيم باشا بعد أن أراح جنوده ورتب شؤنه في عكا أن يمضي شمالًا قاصدًا فتح دمشق، فغادر عكا في يوم (٩ يونية سنة ١٨٣٢م) في جيش مؤلف من (١٨٠٠٠) من المقاتلة؛ منهم (٩٠٠٠) من الجنود النظامية، و(٩٠٠٠) من العربان المصريين والبدو السوريين والدروز، فلما اقترب من دمشق وقعت مصادمة خارج المدينة بين الجيش المصري والجيش العثماني، انهزم فيها الترك، وفر والي الشام بجنوده.

ولم يكن الأهالي معتزمين مقاومة الجيش المصري؛ لأن مساوئ الحكام الأتراك جعلتهم لا يميلون إلى المقاومة؛ بل كانوا أقرب إلى الرغبة في تغيير حكامهم.

فخرج وفد من أعيان المدينة وقابلوا إبراهيم باشا وقدموا طاعتهم، فدخل المدينة يوم (١٦ يونية) ونصب الجيش خيامه خارج البلد، واحترم الجنود المصريون أملاك الأهالي وأموالهم، فكان سلوكهم مدعاة للإعجاب مما حبَّب الحكم المصري إلى نفوس السوريين، وخاصة حينما قابلوا هذا المسلك بما اعتاده الجيش العثماني من أنواع الاعتداء المنكرة.

وأقام إبراهيم باشا في دمشق ثمانية عشر يومًا، وحضر صلاة الجمعة في الجامع الأموي، ورتب الإدارة فيها على نظام جديد، فعين أحمد بك اليوسف أحد أعيانها متسلمًا عليها، وأنشأ (ديوانًا) مؤلفًا من عشرين من أعيان المدينة سماه (ديوان المشورة) يختص بنظر دعاوى الرعية والحكومة.

واقعة حمص (٨ يولية سنة ١٨٣٢م)

جزع الباب العالي لسقوط (عكا) في يد الجيش المصري، وكان يظن أنها ترده خائبًا كما ردت نابليون من قبل، فما واجهته الحقائق خشي على مركزه أن يتزعزع أمام انتصارات المصريين، وكان قد أعلم عصيان محمد علي[1] أثناء حصار عكا، وحشد

(١) في أوائل مايو سنة (١٨٣٢م).

جيشًا مؤلفًا من ستين ألف جندي لقتاله، وأعد أسطولًا من خمس وعشرين سفينة للإقلاع من الدردنيل ومحاربة الأسطول المصري.

وعهد بقيادة جيش البر إلى السر عسكر «حسين باشا» قاهر الانكشارية ومنحه لقب (سردار أكرم)، وكان من أكفأ قواد تركيا، ووهب له ولاية مصر وكريت إذا هو قهر الجيش المصري، فلو كتب له الفوز لوقعت مصر في وهدة الفوضى التي كانت تتردى فيها في عصر الولاة الأتراك، ولقضى على الاستقلال المصري في مهده؛ ولكن بطولة الجيش المصري حالت دون وقوع الكارثة ومنعت عودة مصر إلى فوضى الحكم التركي.

تقدم جيش حسين باشا ببطء، فلم يصل إلى مضايق جبال (طوروس) إلا في أوائل شهر يولية سنة (١٨٣٢م)، ولم يشأ قائده أن يتقدم بمجموع جيشه لملاقاة الجيش المصري؛ بل ظل على مقربة من (أنطاكية) وأنفذ محمد باشا والي حلب وتحت إمرته مقدمة الجيش وأمره بالتحصن في (حمص).

كان هذا التدبير خطأ حربيًّا كبيرًا؛ لأن انفصال المقدمة عن باقي قوات الجيش وتورطها في مقاتلة الجيش المصري يعرضها للهلاك المحتوم، فلما علم إبراهيم باشا بهذا الخطأ عزم على مواجهة مقدمة الجيش التركي وسحقها، ثم مهاجمة باقي الجيش بعد ذلك، فتقدم من دمشق زاحفًا على (حمص)، واستدعى من بعلبك وطرابلس بقية جنده الذين كانوا بقيادة «عباس حلمي باشا، وحسن بك المناسترلي» فصارت قوة الجيش عندما بلغ (حمص) نحو ثلاثين ألف مقاتل[1]، وصار أمام معسكر «محمد باشا» والي حلب، وهناك وقعت الواقعة المشهورة بمعركة حمص (٨ يولية ١٨٣٢م).

(١) «إحصاء مانجان» ج٣، ص٤٢.

تقع مدينة (حمص) على الشاطئ الأيمن من نهر العاصي، وموقعها غاية في الأهمية؛ لأنها ملتقى عدة طرق، فهي على طريق بعلبلك ودمشق جنوبًا، وطريق أنطاكية وحلب شمالًا.

وقد عسكر «محمد باشا» قائد الجيش التركي بجنوده على نهر العاصي -جنوبي حمص- وتحت أسوارها، ورتب جيشه على صفوف ثلاثة؛ فوقف المشاة في الصف الأول، تمتد مسيرتهم على مقربة من ضيعة متهدمة على مسافة نصف فرسخ، والصف الثاني من خلفهم، ويتألف من ألايين من المشاة، وعن يمينهم وشمالهم ألايان من الفرسان، ويليهم الصف الثالث، ومعظمه من الجنود غير النظامية (الباشبوزق)، وتحمي المدفعية جناحه الأيمن، أما الصف الأول والثاني فلم يكن يسندهما سوى عدد ضئيل من المدافع، وهذا من سوء التدبير.

أمَّا الجيش المصري فقد رابط في مواجهة الجيش التركي على ثلاثة صفوف؛ فوقف في الصف الأول فريق من المشاة يبلغ عددهم ثلاثة ألايات، وعن يمينهم وشمالهم ألايان من الفرسان، وفي الصف الثاني وقف جنود الحرس والمشاة، ويشد أزرهم من الجانبين ألايان آخران من الفرسان، ورابط الاحتياطي من الفرسان والمشاة في الصف الثالث.

ونصب إبراهيم باشا مدافعه على ترتيب بديع؛ فجعل أمام الصف الأول ثلاث بطاريات؛ واحدة في القلب، وأخرى على اليمين، والثالثة على اليسار، ووضع بين الصف الثاني والصف الثالث ثلاث بطاريات أخرى، وفيها المدافع الثقيلة، وبينهما وبين الاحتياطي مهمات الجيش وأمتعته، وعلى جانبي الثالث فرسان البدو من العرب الهنادي وغيرهم.

يدل هذا الترتيب وحده على دقة في التدبير وكفاية في القيادة، ولو تأملت في خريطة الواقعة (ص٢٣٣) لتبينت بداءة ذي بدء مبلغ الفرق بين قيادة الجيش المصري وقيادة الجيش التركي.

ولقد كان إبراهيم باشا أسرع من خصمه إلى رسم خطط القتال، فبينما كان محمد باشا قائد الجيش العثماني مترددًا في أي طريق يأخذه، استقر رأي إبراهيم باشا بعد أن استشار خاصة أركان حربه على أن يكون البادئ بالهجوم.

فأمر كتائب الفرسان التي ترابط على ميمنة الصفوف الثلاثة بالزحف شرقًا لتقوم بحركة التفاف حول ميسرة الترك، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة؛ لأن على نجاحها يدور مصير المعركة.

فتحرك الفرسان وفقًا لهذه الخطة، واجتازوا الضيعة المتهدمة المتقدم ذكرها بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف خطوة، وتقدموا لمهاجمة فرسان الترك من الجنود غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة، وكان الهجوم شديدًا محكم الوضع، فتراجع الترك أمام قوة الهجمة وشدة الضرب، وتفرقوا بددًا، واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص، ثم تقدم الفرسان الترك النظاميون الذين كانوا يرابطون في ميسرة الصف الثالث لصد هجمة المصريين، فأمدَّ إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة والمدافع، فأطلق المصريون مدافعهم وبنادقهم على فرسان الترك؛ فأوقعوا بهم وفرقوا جمعهم، وتراجع هؤلاء إلى حدائق حمص، وهجم المشاة المصريون من القلب هجمة صادقة فتقلقل الترك عن مراكزهم وتقهقروا إلى الوراء؛ وبذلك انهزم الجناح الأيسر من الجيش التركي بأكمله وتخلى عن مواقعه. وقامت ميسرة الجيش المصري بحركة بديعة؛ ذلك أنَّ فرقة منها زحفت غربًا واجتازت القناة التي تتفرع عن نهر العاصي، تتبعها المدافع، واحتلت شاطئ القناة الأيسر، وبذلك سدت الطريق أمام ميمنة الترك، وصار من المتعذر عليهم أن يهموا بالهجوم من هذه الناحية.

تحرج مركز الجيش التركي أمام هجمات المصريين، وزاد مركزه حرجًا أن المدافع المصرية كانت تطلق قنابلها بمهارة وإحكام، فتصيب الهدف وتحصد صفوف الترك حصد النبات، في حين أن المدافع التركية كانت منصوبة على غير هدى، وفي مواضع لا

تصيب منها الهدف، فضلًا عن قلة الخبرة والدربة في رماتها، وقد بقي الكثير منها منصوبًا في مؤخرة الصف الثالث فلم يعلم عملًا في صد هجمات المصريين.

ولما رأى «محمد باشا» قائد الجيش التركي حرج مركزه أمر صفوفه بالهجوم؛ ولكن المشاة المصريين من جنود الصف الأول قابلوهم برصاص بنادقهم؛ ففتكت بهم النيران فتكًا ذريعًا وارتدوا على أعقابهم، فوقع الذعر في صفوف الترك وولوا الأدبار مدحورين.

ولقد كان مظنونًا أن يعود الترك للقتال بعد أن يلموا شملهم؛ إذ كانت قلعة حمص تحمي ظهورهم، ومرت لحظة توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال، وزاد هذا الظن رجحانًا أن مدافع القلعة كانت تطلق قنابلها، ولكن هذا الظن ما لبث أن تبدد، ولم يقو الترك -بل لم يفكروا- في معاودة القتال، وتقدم إبراهيم باشا بجيشه الظافر، فاحتل المواقع التي كان الترك يرابطون بها، وصفَّ جيشه على شكل مربع، ووضع المدافع على زواياه الأربع، فازداد مركزه قوة ومنعة، فتابع الترك تقهقرهم منهزمين؛ وبذلك انتهت واقعة حمص بانتصار الجيش المصرري بعد أن دام القتال نحو أربع ساعات؛ إذ بدأت وقت العصر وانتهت عندما أرخى الليلُ سدوله. وبادر إبراهيم باشا فأرسل إلى أبيه ينبئه بهذا النصر المبين.

بلغت خسائر الجيش العثماني في واقعة حمص (٢٠٠٠) من القتلى، و(٢٥٠٠) من الأسرى، واستولى الجيش المصري على عشرين من مدافعه وعلى ذخائره وأمتعته. وأمَّا خسائر المصريين فلم تزد عن (١٠٢) من القتلى و(١٦٢) من الجرحى. ودخل المصريون في اليوم التالي مدينة (حمص).

وتُعد هذه الواقعة من أهم المعارك التي خاضها الجيش المصري، فقد كانت أول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصري والتركي وجهًا لوجه[١]، وكلاهما يتبع بقدر استطاعته النظام الحربي الحديث، وكانت قوات الجيشين متعادلة، فكلاهما مؤلف من نحو ثلاثين ألف مقاتل؛ ولكن الجيش المصري امتاز ببراعة القيادة وحسن النظام وبسالة جنوده والتفوق في المران العسكري، فلا غرو أن كسب المعركة.

وكان لترتيب الخطط الحربية فضل كبير في انتصاره، وهنا تبدو كفاية إبراهيم باشا في القيادة ومهارته في الفنون الحربية.

وقد دلت معركة حمص على تفوق الجيش المصري على الجيش التركي في ميادين القتال، فكان لهذه الدلالة تأثير كبير في الأذهان؛ لأن أحدًا لم يكن يتصور أن جيش السلطان يهزم أمام الجيش المصري الذي كان معدودًا إلى ذلك الحين جزءًا من الجيش «الشاهاني»، وتلك أول مرة ظهر فيها الجيش المصري على الجيش التركي في معركة كبيرة؛ فمحت هذه المعركة ذكرى هزيمة الجيش المصري في معركة (الريدانية) أمام جيوش السلطان سليم في بدء الفتح العثماني لمصر -أي منذ نيف وثلاثة قرون- وغسلت الذلة التي لحقتها في تلك الهزيمة، وإذا كانت معركة (الريدانية) قد قضت على استقلال مصر وجعلتها ولاية تركية فلا ريب أن معركة (حمص) والوقائع التي تلتها أرجعت لمصر استقلالها وقضت على الحكم العثماني فيه، فلم تقم له بعد ذلك قائمة.

(١) إنَّ حصار عكا وإن كان أسبق من واقعة حمص إلا أنَّه لا يُعد معركة. والمقصود من المعركة اصطدام جيشين في ميدان مكشوف. أمَّا واقعة (الزراعة) فهي وإن كانت أيضًا أسبق من معركة حمص إلا أنها لا تُعد من المعارك الكبيرة بالنسبة لوقائع حمص وبيلان وقونية ونصيبين.

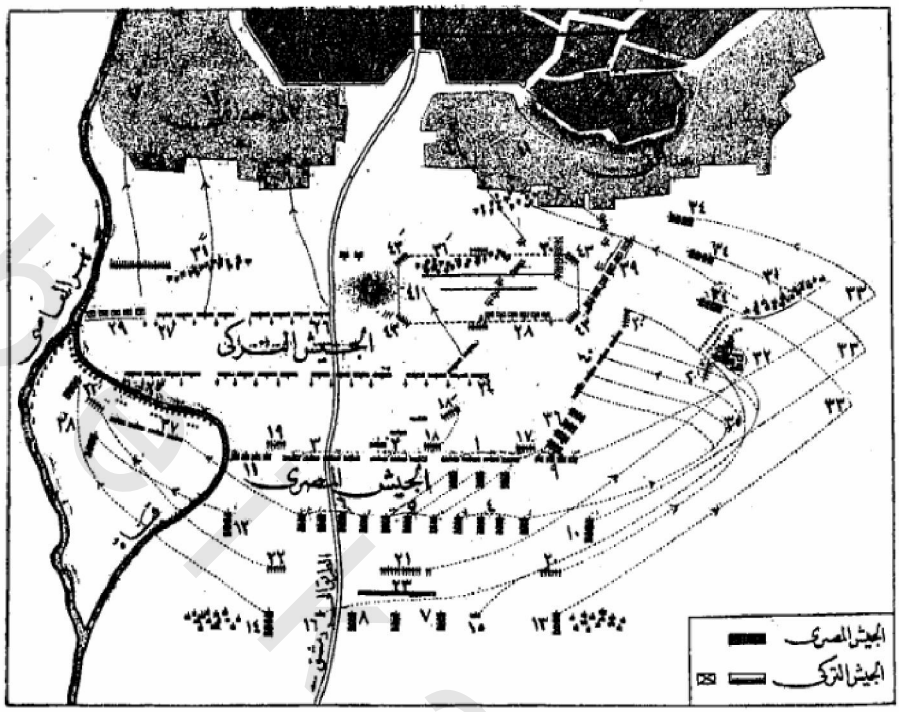

خريطة واقعة حمص (٨ يولية سنة ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية :

موقع الجيش المصري

١، ٢، ٣	الصف الأول من المشاة مؤلفًا من الألاي الثاني (نمرة ١)، والألاي الثالث عشر (نمرة٢)، والألاي الثامن عشر (نمرة ٣).
٤، ٥، ٦	الصف الثاني من المشاة مؤلفًا من ألاي الحرس (نمرة ٤)، والألاي الخامس من المشاة (نمرة ٥)، والألاي الخامس (نمرة ٤)، والألاي الخامس من المشاة (نمرة ٥) والألاي الحادي عشر (نمرة ٦).
٧، ٨	الصف الثالث (الاحتياطي) مؤلفًا من الألاي الثامن من المشاة.
٩	ألاي من الفرسان عن يمين الصف الأول.
١٠	ألاي من الفرسان عن يمين الصف الثاني.

ألاي من الفرسان عن يسار الصف الأول.	١١
ألاي من الفرسان عن يسار الصف الثاني.	١٢
الفرسان على جانبي الصف الثالث.	١٣، ١٤
كتيبتان من الرماة على جانبي الصف الثالث.	١٥، ١٦
المدافع موزعة أمام الصف الأول وبين الثاني والثالث.	١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢
مهمات الجيش وأمتعته.	٢٣

موقع الجيش التركي

الصف الأول من المشاة.	٢٤، ٢٥
الصف الثاني من المشاة.	٢٦، ٢٧
فرسان الترك النظاميون. المدافع موزعة هنا وهناك.	٢٨، ٢٩، ٣٠
الفرسان غير النظامين (الباشبوزق) ومنهم يتألف معظم الصف الثالث.	٣١، ٣١، ٣١

حركات الجيشين

الضيعة المتهدمة التي اتجهت في طريقها ميمنة الجيش المصري.	٣٢
الموقع الذي اتجه إليه الفرسان المصريون للالتفاف بميسرة الترك، ومنه تقدموا وهاجموا الفرسان الباشبوزق (نمرة ٣١) قريبًا من الضيعة.	٣٣
الموقع الذي وصلوا إليه بعد الهجوم المتقدم.	٣٤
الموقع الذي تقدمت إليه طوابير الحرس (نمرة ٤).	٣٥

obeikan.com

٢٠	وصول البطارية ٢٠ إلى يسار الضيعة واحتلال الرماة المصريين ١٥ و١٦ تلك الضيعة.
٣٦	الموقع الذي اتجه إليه الألاي نمرة ١ لشد أزر جنود الحرس.
١٨َ	الموقع الذي اتجهت إليه البطارية ١٨ لمعاونة الألاي نمرة ٢ في هجومه على الترك، وقد تقدم الألاي نمرة ٥ ليحل محل الألاي نمرة ١، وليشد أزر الألاي نمرة ٢ في هجومه.
٣٧	الموقع الذي اتجه إليه الألاي نمرة ٦ لسد الطريق أمام ميمنة الترك.
٣٨	الموقع الذي اتجه إليه الألاي نمرة ١٢ ونمرة ١٤ (من الفرسان) لشد أزر الحركة المتقدمة.
٢٢َ	انتقال البطارية نمرة (٢٢) إلى موقعها الجديد للغرض نفسه.
٣٩	الموقع الذي تقدم إليه الفرسان الترك نمرة ٣٠ بعد هزيمة الباشبوزق؛ لصد هجمة الفرسان المصريين.
٤٠	الموقع الذي وصل إليه جنود الحرس المصريون، وعن يمينهم البطارية ٢٠، وضربهم فرسان الترك يعاونهم الفرسان من الموقع ٣٤.
٤١، ٤١َ، ٤١ً	تقهقر ميسرة الترك بعد هزيمتهم.
٤٢، ٤٢َ، ٤٢ً	تقهقر ميمنة الترك.
٤٣، ٤٣َ، ٤٣ً، ٤٣ً	المربع الذي احتله الجيش المصري بعد هزيمة الترك.

الموقف الحربي بعد واقعة حمص

ارتد الجيش العثماني بعد هزيمته في واقعة (حمص) قاصدًا حلب.

أمَّا جيش «حسين باشا» فكان قد بلغ (أنطاكية)؛ بينما كان جيش محمد باشا والي حلب والجيش المصري على وشك اللقاء في معركة حمص. وهكذا يتبين لك أن انفصال الجيشين العثمانيين بعضهما عن بعض مكن الجيش المصري من الانقضاض على كليهما واحدًا بعد واحد، ولو كانت القيادة التركية على شيء من الكفاية لما تقدم جيش محمد باشا وحده، ولانتظر قدوم جيش حسين باشا قبل مواجهة الجيش المصري، ولكن عجز القيادة التركية وارتباك حكومة الأستانة كانا من الأسباب التي أفضت إلى هزيمة الجيش التركي.

بارح جيش حسين باشا أنطاكية قاصدًا إلى حمص، فالتقى في طريقة بفلول الجنود المهزومة من جيش محمد باشا، وعرف منهم نبأ هزيمة حمص، فارتد الجميع إلى (حلب) ليتخذوها قاعدة حربية لقتال الجيش المصري، وطلب حسين باشا من أعيانها أن يمدوه بالمئونة والرجال، ولكن أهالي حلب كانوا كارهين للحكم التركي وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب إذا استهدفت للحرب، فأبوا على الجيش التركي أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه الجيش التركي.

وفي خلال ذلك كان إبراهيم باشا يتقدم بالجيش المصري نحو حلب، ولم يجد حسين باشا مكانًا حصينًا يأوي إليه، فانسحب شمالًا إلى مضيق (بيلان) جنوبي الإسكندرية -وهو أحد مفاتيح سورية من الجهة الشمالية- وحصن فيه مواقعه تحصينًا منيعًا، وساعدته طبيعة تلك المواقع على الامتناع بها.

واقعة بيلان (٣٠ يولية سنة ١٨٣٢م) [١]

تقدم الجيش المصري فاحتل من غير مقاومة (حماة) ثم (حلب) ومكث بها بضعة أيام استراح فيها، وجاءته بها وفود من (أورقا) و(ديار بكر) تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد علي، ثم تأهب لاستئناف الزحف وتابع زحفه حتى صار على مقربة من واقع العدو في بيلان.

كان الجيش العثماني الذي يقوده حسين باشا مؤلفًا من نحو (٤٥) ألفًا من الجنود النظامية، لديها السلاح الكافي ويعززها (١٦٠) مدفعًا، وهي قوة لا يستهان بها ترابط في مواقع منيعة، ولكن قيادتها تعوزها الكفاية والخبرة، وحالة الجنود المعنوية لم تكن على ما يرام، فإن ما حل بالجيش التركي من الهزائم المتوالية وما تعاقب عليه من تغيير القواد واندحارهم قد خذل روح الجند، وعلى عكس ذلك كان موقف الجيش المصري، فإن ذكرى الانتصارات المتتابعة قد ملأت جنوده قوة وحماسة، وجعلتهم يركنون إلى قائدهم الباسل إبراهيم باشا الذي سار بهم من نصر إلى نصر.

تقع مدينة (بيلان) جنوبي الإسكندرية وشمالي المضيق والجبل المعروفين باسمها ويصل إليها طريقان؛ طريق من كليس، وطريق من أنطاكية، ويقترب الطريقان في سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر، ثم يلتقيان في المضيق جنوبي بيلان، فيصبحان طريقًا واحدة يصل إلى المدينة، وترى على الخريطة نقطة تلاقيهما.

وقد اتخذ الجيش التركي مواقعه على قمم جبال بيلان، فاحتشد المشاة فوق هضبة على خط منكسر يصل طرفه الأيمن -حيث ميمنة الجيش- إلى طريق وعر يخترق الجبل آتيًا من (خان قرموط) ذاهبًا إلى بيلان، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى طريق الوسط الواصل إلى بيلان نفسها، أما ميسرة الجيش فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلي

(١) اعتمدنا في بيان يوم الواقعة على رواية «كادلفين وبارو» ص٢٠٦.

هذا الطريق، يشد أزرها بعض المدافع المنصوبة على أكمة قريبة من الطريق، وأقام الترك أمام صفوف المشاة استحكامات نصبوا فيها مدافعهم، وأمامها الفرسان.

أمَّا الجيش المصري فقد عسكر في السهل المنبسط تحت المضيق غربي الطريق الواصل من كليس إلى أنطاكية، وتجد موقعه بالخريطة (نمرة ١-٢)، فاتخذ المشاة مواقعهم في الصفوف الأمامية، والفرسان من ورائهم والمدفعية في الوسط، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وأمتعته.

ذلك هو موقع الجيشين قبيل المعركة.

أنعم إبراهيم باشا النظر في مواقع الترك على جبال بيلان، فرآها منيعة يصعب على الجيش المرابط في السهل المنبسط في سفح الجبل أن ينال منها منالًا، فاجتمع وخاصة قواده وضباطه، وأخذ يتداول وإياهم الآراء في الخطة التي تكفل الفوز، فاستقر رأيه بعد دراسة الموقف ألا يهاجم الترك مواجهة؛ لاستحالة ذلك، ورأى الخطة المثلى أن يدور حول ميسرتهم من الجنب تمهيدًا للإحاطة بها، ثم يحتل أكمات تتسلط على القلب، فيجعل المشاة الترك هدفًا لنيران المدافع المصرية، وفي الوقت نفسه يرسل جزءًا من قواته للإحاطة بميمنة الجيش التركي.

وعملًا بهذه الخطة أنفذ جنود الحرس والألاي الثامن والثامن عشر من المشاة إلى طريق كليس-بيلان، فساروا إليه واحتشدوا وراء أكمة تمتد إلى الطريق (نمرة ١٨) ووراءهم المدافع في بطن الوادي غربي الطريق (نمرة ١٩ و٢٠)، ثم أخذت كتائبهم تحرك شرقًا في اتجاه ميسرة الجيش التركي، تتبعهم المدافع الكافية.

وقد تولى إبراهيم باشا بنفسه قيادة هذه الحركة؛ لأن عليها يدور مصير المعركة، وأنفذ في الوقت نفسه الألاي الثالث عشر من المشاة بقيادة حسن بك المناسترلي تصحبه بطارية من المدافع، فزحف صوب الطريق الآخر الذاهب من أنطاكية إلى بيلان، ووصل إلى الطريق واحتل الموقع الذي ينتهي إليه (نمرة ٢١)، وتبعه الألاي الخامس

من الفرسان لتتألف منه قوة احتياطية له في هجومه على ميمنة الجيش التركي، فاستقر وراءه (نمرة ٢٢).

كانت هاتان الحركتان -وخاصة حركة الميمنة التي تولى إبراهيم باشا قيادتها- تكتنفهما مصاعب جمة؛ لأن المصريين اضطروا أن يسيروا صعدًا في طرق وعرة، فاحتملوا في اجتيازها المتاعب والشدائد الهائلة، ولما لمح الترك تقدمهم صوَّبوا إليهم مدافعهم وأطلقوا القنابل عليهم، فأمر إبراهيم باشا بنصب المدافع وراء الأكمة التي احتشد فيها المشاة، وأطلق القنابل على وجهة الجيش التركي بين القلب والميسرة، وتبادل الفريقان إطلاق القنابل.

واستمر المصريون في زحفهم شرقًا، إلى أن تخطوا مواقع الجناح الأيسر من الجيش التركي، فهاجموه من الأمام ومن الجنب هجومًا شديدًا، فتقلقل الترك عن مواقعهم واضطروا إلى الارتداد شمالًا، فابتدأت هزيمتهم، واستمر المصريون يتعقبونهم.

وفي خلال هذه الحركة استولى الرماة المصريون على المدافع المنصوبة على الأكمة التي تحمي الجناح الأيسر (نمرة ١٧)، ووصل المصريون إلى مرتفعات (نمرة ٢٤) تشرف على مواقع الترك، وعلى طريق بيلان، وركبوا فيه المدافع، فاستهدفت ميسرة الترك في انسحابها لنيران المدافع والبنادق المصرية، فوقع في صفوفها الاضطراب والفشل، وحلت بها الخسائر الجسيمة.

وتقدم فريق من جنود الألاي الثامن عشر من مكانهم (نمرة ١٨)، واقتربوا من فرسان الترك المحتشدين أمام قلب الجيش العثماني، وهاجموهم (بالموقع نمرة ٢٥) وقت إحاطة جنود الحرس والألاي الثامن بميسرة الترك.

فتحرج مركز الفرسان العثمانيين أمام هذا الهجوم الهائل، وخاصة بعد أن احتل المصريون المرتفعات المشرفة على مواقعهم، فلم يقاوموا طويلًا، وسارعوا إلى الارتداد شمالًا نحو بيلان من غير نظام، وتفرق شملهم وتبددت جموعهم.

ولما ارتدت ميسرة الترك ووصل المصريون في تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه، تحرج مركز قلب الجيش العثماني؛ إذ رأى ما حل بالميسرة، وأدرك أن خط الرجعة إلى بيلان أصبح مقطوعًا بوصول المصريين إلى الطريق، فلم تثبت جموعه أمام هجمة المصريين ولاذوا بالفرار وتخلوا عن موقعهم وتشتتوا في الجبال.

وأصاب الجناح الأيمن مثل ما أصاب القلب؛ فقد تقدم المصريون من جنود الألاي الثالث عشر لمهاجمته، ووصل رماتهم ومعهم المدافع إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة (نمرة ٢٧)، على أن الترك لم يصمدوا للقتال بعدما علموا بما أصاب الميسرة، وتخلوا عن مواقعهم وتقهقروا في الجبال.

تخلى الترك إذن عن مواقعهم على طول الخط، فاحتلها المصريون، وبذلك انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركي بعد قتال دام ثلاث ساعات فقد فيه الترك من رجالهم نحو (٢٥٠٠) من قتيل وجريح، وأسر منهم المصريون (٢٠٠٠) أسير، وغنموا (٢٥) مدفعًا وكثيرًا من الذخائر.

وبعد انتهاء الواقعة احتل المصريون (بيلان) تخفق على صفوفهم أعلام النصر والظفر.

أمَّا الترك فقد فرت فلولهم إلى الإسكندرية لتلجأ إلى العمارة التركية، ولكنهم لم يدركوا العمارة لأنها أقلعت من الميناء بعد هزيمة بيلان، فسار المصريون في أعقابهم وأسروا الكثيرين منهم واحتلوا الإسكندرية. ثم تقدم فرسانهم وساروا حذاء الساحل واحتلوا (بياس) شمالي الإسكندرية، وأسروا فيها (١٩٠٠) مقاتل من الجيش التركي، وسلمت أيضًا (أنطاكية) و(اللاذقية) و(السويدية).

كانت نكبة الجيش التركي في هذه الواقعة نكبة ساحقة، واختفى قائده العام على وجهه متنكرًا خوفًا من الفضيحة، ونجاة بنفسه من القصاص الذي هو لا بد ملاقيه إذا عاد إلى الأستانة وفي تبعته هذه الهزيمة.

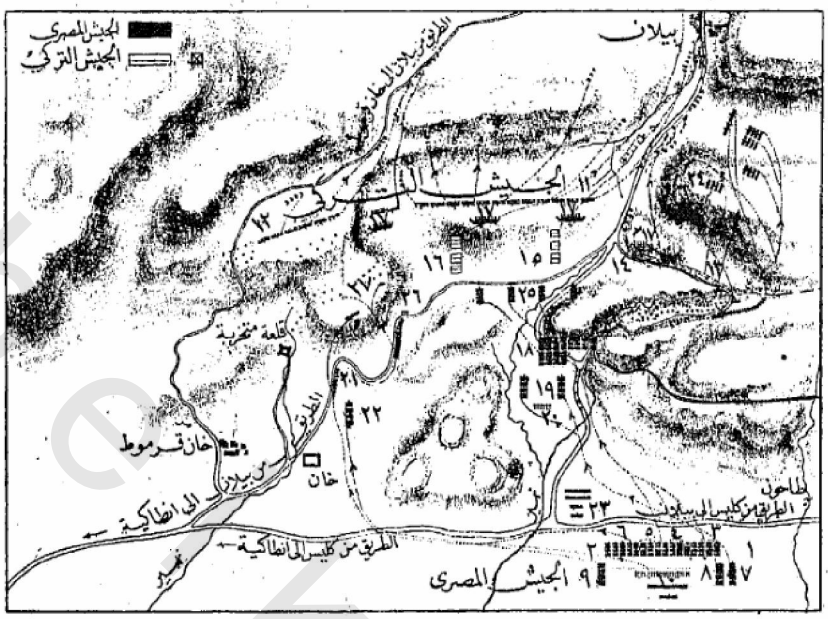

خريطة واقعة بيلان (٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية

موقع الجيش المصري

٢،١	موقع الجيش المصري قبل الواقعة على سفح مضيق بيلان، غربي الطريق الذاهب من كليس إلى أنطاكية، وقد اصطفت قواته بالترتيب الآتي:
٣	ألاي الحرس.
٤	الألاي الثامن من المشاة.
٥	الألاي الثامن عشر من المشاة.
٦	الألاي الثالث عشر من المشاة.
٧	الألاي الثاني من الفرسان.
٨	الألاي الرابع من الفرسان.
٩	الألاي الخامس من الفرسان.
١٠	المدافع ويليها مهمات الجيش وأمتعته تحرسها كتيبة من العرب المصريين.

مواقع الجيش التركي (١١-١٢-١٣-١٤)

١٢،١١	المشاة الترك منتشرون فوق هضبة على خط منكسر، تصل يسراه إلى طريق أنطاكية- بيلان، ويمناه إلى أكمة تفضي إلى طريق جبلي يصل من خان قوموط إلى بيلان، ومن هذا الخط يتألف الجناح الأيمن وقلب الجيش التركي.
١٤،١٣	الجناح الأيسر.
١٦،١٥	الفرسان الترك.
١٧	المدافع منصوبة أمام المشاة.

حركات الجيش المصري قبيل بدء القتال

وقبل ابتداء الواقعة اتخذ إبراهيم باشا المواقع الآتية للجيش المصري:

١٨	تحركت جنود الحرس والألاي الثامن من المشاة من مواقعها الأولى (نمرة ٣و٤) ووصلت إلى الموقع ١٨ وراء الأكمة.
١٩	اجتمعت كتائب من الفرسان ببطن الوادي غربي الطريق الذاهب إلى بيلان بالموقع نمرة ١٩.
٢٠	المدفعية الاحتياطية وراء الفرسان، الألاي الثامن عشر (نمرة ٥) يتبع الألاي الثامن والحرس.
٢١	الألاي الثالث عشر من المشاة (نمرة ٦) يتجه نحو الطريق الذاهب من أنطاكية إلى بيلان، ويحتل الموقع نمرة ٢١ على الطريق.
٢٢	الألاي الخامس من الفرسان (نمرة ٩) يتبع الألاي الثالث عشر، ويحتشد خلف الموقع (٢١) ليكون له بمثابة الاحتياطي في هجومه على ميمنة الترك، بطارية من المدافع تتبع الألاي الثالث عشر إلى الموقع ٢٢.
٢٣	نقلت مهمات الجيش إلى الموقع ٢٣ تحميها فصيلتان من العرب.

حركات القتال

زحف جنود الحرس والألاي الثامن من الموقع نمرة ١٨ إلى منبع نهير صغير للإحاطة بميسرة الترك ١٣-١٤، وهاجموا الميسرة من الأمام ومن الجنب، واستولى الرماة المصريون على المدافع التركية المنصوبة على الأكمة ١٧، ووصل المصريون إلى المرتفعات نمرة (٢٤)، وتحت تأثير الهجوم ارتدت ميسرة الترك بغير نظام إلى بيلان، وكانت في انسحابها هدفًا لنيران المصريين، فحلت بها الخسائر الجسيمة.

وترى على الخريطة تقدم الألاي الثامن عشر وفريق من الألاي الثامن من الموقع (١٨) إلى الموقع (٢٥) لمهاجمة قلب الجيش التركي مع فرسانه وقت إحاطة جنود الحرس والألاي الثامن بميسرتهم، وانسحاب الفرسان الترك من الموقع (١٥ و١٦) وتشتت شملهم، ثم ارتداد قلب الجيش التركي بغير نظام وتشتته في الجبال.

وترى زحف الألاي الثالث عشر من المشاة على ميمنة الترك، فقد تحرك ومعه عدد من المدافع إلى الموقع (٢٦)، ووصل الرماة إلى الأكمة (٢٧) تمهيدًا لزحف بقية الجند، ولكن الترك لم يصمدوا للقتال بعد ما علموا بما حل بالميسرة، فتقهقروا في الجبال وتخلوا عن معاقلهم كما تخلى بقية الترك عن مواقعهم على طول الخط، وبذلك انتهت الواقعة.

زحف الجيش المصري في الأناضول

اجتاز المصريون بعد واقعة (بيلان) حدود سورية الشمالية، ودخلوا ولاية (أدنه) من بلاد الأناضول، وعبروا نهري (جيحون) و(سيحون) واحتلوا (أدنه) وطرسوس، وأخذ إبراهيم باشا يوطد مركزه وينظم الولايات التي فتحها قبل أن يزحف بجيشه إلى الأمام، واحتشد معظم الجيش في مدينة (أدنه) إذ كانت مفتاح الزحف على الأناضول، وكانت أيضًا صلة المواصلات بطريق البحر بين مصر والجيش المصري، وأنفذ إبراهيم باشا كتائب من جنده فاحتلوا (أورفا) وعينتاب ومرعش وقيصرية.

لم تنكسر عزيمة السلطان محمود أمام الهزائم التي حاقت بجيشه، وأعد جيشًا جديدًا عهد بقيادته إلى الصدر الأعظم «محمد رشيد باشا»[١]، كان هذا الجيش مؤلفًا من (٥٣) ألف مقاتل[٢]، هم خليط من أجناس السلطنة العثمانية لا تربطهم رابطة ولا تجمعهم غاية، فلا غرور أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية، وخاصة إذا كان الجيش الذي يقاتله قويًّا بوحدته متماسك الصفوف معتزًّا بقيادته.

كان رشيد باشا من خيرة قواد تركيا؛ لكنه دون إبراهيم باشا في الكفاية والمران، وقد اشترك معه من قبل في حروب (الموره) وخاصة أمام مدينة (ميسولونجي). ومن تهكم الأقدار أن هذين القائدين اللذين اشتركا معًا في ميدان القتال زمنًا ما، وكانا يدافعان عن غايةٍ واحدةٍ، صارا عدوين لدودين يعمل كل منهما ليسحق الآخر.

احتشد الجيش التركي في الأستانة، وعرضه السلطان محمود بنفسه ليبث في قلوب رجاله روح الشجاعة والإقدام، وزوده ببعض الألايات المشاة النظاميين وعدد وافر من المدافع.

ثم تقدم رشيد باشا بهذا الجيش العرمرم في بطاح الأناضول، ليلتقي بالجيش المصري، وكان إبراهيم باشا يواصل زحفه في الأناضول، فأنفذ قوة من الجند احتلت مضيق (كولك) من مضايق جبال طوروس، وأقصت عنه الترك، وباحتلال هذا المضيق ذللت عقبة من أكبر العقبات التي تعترض الجيش المصري في زحفه على الأناضول، ثم اعترضتهم عقبة أخرى؛ وهي واد منيع يلي المضيق كان الترك ممتنعين فيه بالقرب من مدينة (شفت خان) فأنفذ إبراهيم باشا قوة أخرى من الجند بقيادة سليم بك الحجازي وإبراهيم أغا الجوخدار[٣]، فهاجموا الترك في الوادي ونشبت معركة

---

(١) هو غير «مصطفى رشيد باشا» الصدر الأعظم في عهد السلطان عبد المجيد وصاحب الإصلاحات المشهورة.

(٢) «إحصاء كادلفين» ص٢٩٥.

(٣) «كادلفين وبارو» ص٢٤٤.

انتهت بانسحاب الترك بعد أن فقدوا (٢٠٠) قتيل وثلاثمائة أسير، وكذلك امتنع الترك في (أولو قشلاق) وهاجمهم فيها المصريون وأجلوهم عنها، وبعد هزيمة الترك في أولو قشلاق جلوا أيضًا عن هرقلة (أركلي) فانفتح الطريق أمام الجيش المصري ومضى في زحفه حتى بلغ (قونية) التي أخلاها الأتراك من غير قتال، فاتخذها إبراهيم باشا قاعدة عسكرية وأخذ يتأهب لملاقاة الجيش التركي ويدرب جنوده على التمرينات في المواقع التي توقع نشوب القتال فيها، فكان ذلك دليلًا على نفاذ بصيرته وبُعد نظيره وبراعته في القيادة، ولئن كان جيشه أقل عددًا من الجيش التركي إذ بلغ نحو ألف مقاتل[١] منهم ألف من العرب (البدو) المصريين؛ إلا أنه يمتاز بحسن النظام وكفاية القيادة والمران على القتال في المعارك العديدة التي خاض غمارها، ولا غرو أن بعثت الانتصارات التي أحرزها في نفوس الجنود روح الأمل والثقة، فكانت هذه الروح من أقوى أسباب النصر والظفر.

واقعة قونية (٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢م)

في (١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢م) وصلت طلائع الجيش التركي بقيادة «رءوف باشا» إلى شمالي (قونية). وكانت مؤلفة في الغالب من الجنود غير النظامية، فناوشهم إبراهيم باشا ليتحقق مبلغ قوتهم، ولما آنس منهم ضعفًا أراد أن يكرههم على القتال؛ لكن رءوف باشا تجنب الدخول في معركة، فانقضى يوما (١٨ و١٩) ديسمبر في مناوشات حربية استولى فيها المصريون على كثيرٍ من الأسرى، وغنموا فيها بعض المدافع.

وفي صبيحة يوم (٢٠ ديسمبر) تقدمت جيوش رشيد باشا إلى قونية، وأخذ كل من القائدين يرتب مواقع جنوده.

وفي اليوم التالي -يوم الواقعة- كان الضباب يخيِّم على ميدان القتال من الصباح فحال دون اكتشاف كل من القائدين موقع الجيش الآخر. على أن إبراهيم باشا كان

(١) «إحصاء مانجان» ج٣، ص٥١، وابكاريوس ص٧٨.

يمتاز على رشيد باشا بأنه درس الجهة التي دار فيها القتال دراسة دقيقة، ومرن جنوده على المناورات فيها قبل اشتباك الجيش.

وقد رابط الجيش المصري شمالي (قونية)، وعلى مقربة من ميمنته شمالًا بشرق مستنقعات من المياه، وعلى مسيرة فرسخ من ميسرته تقع مدينة سيله، وأمامه الجبال، وعلى سفحها يرابط الجيش التركي الذي كان الضباب يحجبه عن أنظار المصريين.

وكان البرد قارسًا، ولا غرو فالمعركة وقعت في شهر ديسمبر في أشد أيام الشتاء، فنزلت درجة البرد يوم الواقعة إلى (١١) فوق الصفر.

واصطف الجيشان في مواقعهما، يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر، ومرت لحظة خفت فيها وطأة الضباب قليلًا، فأمكن إبراهيم باشا أن يلمح موقع الجيش التركي، وقد رتب خطة الهجوم ترتيبًا محكمًا، فرأى أن الهجوم على ميمنة الترك أمر لا تحمد عواقبه؛ لأنها مرابطة على سفح الجبل في مواقع حصينة، بعكس الميسرة التي كانت تستند إلى مستنقعات مكشوفة.

وقبل ان يبدأ إبراهيم باشا بالهجوم تقدمت صفوف الترك حتى صارت على بعد نحو ستمائة متر من مواقع المصريين، وأخذت المدافع التركية تطلق القنابل عليهم، فلم يجب المصريون على الضرب بضرب مثله، إلى أن تعرف إبراهيم باشا على صوت الضرب مواقع الترك، وتقدم الصف الثاني من المصريين حتى اقترب من الصف الأول تفاديًا من فتك القنابل التركية التي كانت تنصب عليه.

واتجه إبراهيم باشا إلى بئر (نمرة ٢٣ على خريطة ص٢٤٧) تقع على يمين الصف الثاني من الجيش المصري ليزداد علمًا بمواقع الترك، وكان يصحبه من خاصة أركان

حربه «مصطفى مختار بك»[١] وكاني بك، وأحمد أفندي[٢]، ومعه قوة من ألف وخمسمائة من العرب.

وهناك لمح مواقع الترك، وعرف بثاقب نظره نقطة الضعف التي يصيب منها الهدف؛ ذلك أن قوة الفرسان كانت تؤلف ميسرة الجيش التركي، وقد أخطأت القيادة التركية في أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة أثناء التقدم، فحدثت بينهما ثغرة يبلغ طولها نحو ألف خطوة جعلت الميسرة في شبه عزلة عن بقية الجيش (كما تراه على الخريطة).

فانتهز إبراهيم باشا هذه الفرصة، واعتزم الدخول بقوات الحرس والفرسان في هذا الثغرة ليخترق صفوف الترك، وبادر فعلًا فأصدر تعليماته لتحرك هذه القوات، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة، فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان واجتازت البئر بقليل، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجومًا شديدًا، وشدت المدفعية أزرها، فصبت قنابلها على الترك وأخذتهم من الجنب، وكان الهجوم شديدًا، والضرب محكمًا، فتقلقل الترك من مراكزهم لشدة الهجوم وتقهقروا شمالًا من غير نظام في المستنقعات، وبذلك انهزمت ميسرة الجيش التركي.

ثم تابع المصريون تقدمهم وتوسطوا ميدان المعركة حيث واجهوا الصف الثالث من مشاة الترك الذين اقتحموا الميدان ووصلوا إلى تلك الناحية (نمرة ١٧) فأصلتهم المدافع نارًا حامية، وأحاط بهم المصريون وضربوهم ضربًا شديدًا وأوقعوا بهم حتى سلموا سلاحهم.

ولما أدرك الصدر الأعظم أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل أراد أن يلم شعثها ويبث الحمية في نفوس رجاله، فنزل إلى حيث مواقع الجند؛ لكنه لم يفز بطائل،

(١) من خريجي البعثات المصرية، وقد درس الفنون الحربية بفرنسا، وهو الذي تولى فيما بعد رئاسة ديوان المدارس؛ أي وزارة المعارف العمومية.

(٢) من خريجي البعثات أيضًا.

وضل الطيق لكثرة تكاثف الضباب، وبينما هو يسير على غير هدي وقع في أيدي العرب المصريين، فأحاطوا به وجردوه من سلاحه، واقتادوه أسيرًا إلى إبراهيم باشا، وكان قد مضى على نشوب القتال نحو الساعتين.

وتابع المصريون من المشاة والفرسان تقدمهم شمالًا، واستأنفوا معهم بعض المدافع، وهاجموا الصف الرابع من مشاة الترك، فحاقت به الهزيمة وسلم وتمزق شمله، وبذلك تم للجيش المصري الفوز على ميسرة الترك والصف الثالث والرابع من مشاتهم.

وبينما كانت قوات الحرس والفرسان تقوم بهذه الحركات والهجمات الموفقة تقدم الصف الأول من صفوف الأعداء نحو ميسرة الجيش المصري، واتخذوا مواقعهم حولها في خط منكسر بقصد الإحاطة بها. واشترك في هذه الحركة الصف الثاني من صفوفهم، وعاونهم فرسانهم، فكانت الهجمة هائلة، عنيفة في شدتها، خطيرة في عواقبها؛ ولكن ميسرة الجيش المصري تلقتها بثبات وشجاعة وتحركت مدافع الاحتياطي فشدت أزر المدفعية التي تحمي الميسرة، وصبت المدافع المصرية قنابلها على صفوف الترك، فحصدت صفوفهم حصدًا، واستبسلت الميسرة في الضرب والقتال، وكان على دفاعها يتوقف مصير المعركة، واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة، ثم أسفرت عن كسر هجمة الترك وهزيمتهم وتشتيت شملهم في الجبال.

وكأنما أراد الترك أن يبذلوا آخر جهد في المعركة، فتحركت قوة من الفرسان ووصلت تجاه الصف الأول من الجيش المصري، فلم يحفل بها المصريون لأنها كانت سائرة نحو الفشل المحقق، فما زالت تتقدم حتى وصلت إلى ما وراء صفوف الجيش المصري، وهناك تشتت شملها وولت الأدبار.

انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركي، ودام القتال فيها سبع ساعات؛ إذ بدأت في الظهر وانتهت بعد غروب الشمس بساعتين، ولم تزد خسارة المصريين عن (٢٦٢) قتيلًا و(٥٣٠) جريحًا. أمَّا الجيش التركي فقد أسر قائده ونحو خمسة آلاف إلى ستة آلاف

من رجاله؛ من بينهم عدد كبير من الضباط والقواد، وقتل من جنوده نحو ثلاثة آلاف، وغنم المصريون منه نحو (٤٦) مدفعًا وعددًا كثيرًا من الرايات.

فلا غرو كانت معركة قونية نصرًا مبينًا للجيش المصري، وصفحة فخار في تاريخ مصر الحربي.

ولقد كانت من المعارك الفاصلة في حروب مصر؛ لأنها فتحت أمام الجيش طريق الأستانة؛ إذ أصبح على مسيرة ستة أيام من البوسفور، وكانت الطريق مخلاة لا يعترضه فيها جيش ولا معقل، فلا جرم أن ارتعدت فرائص السلطان محمود بعد هذه الواقعة؛ إذ رأى قوائم عرشه تتزلزل أمام ضربات الجيش المصري وانتصاراته المتوالية.

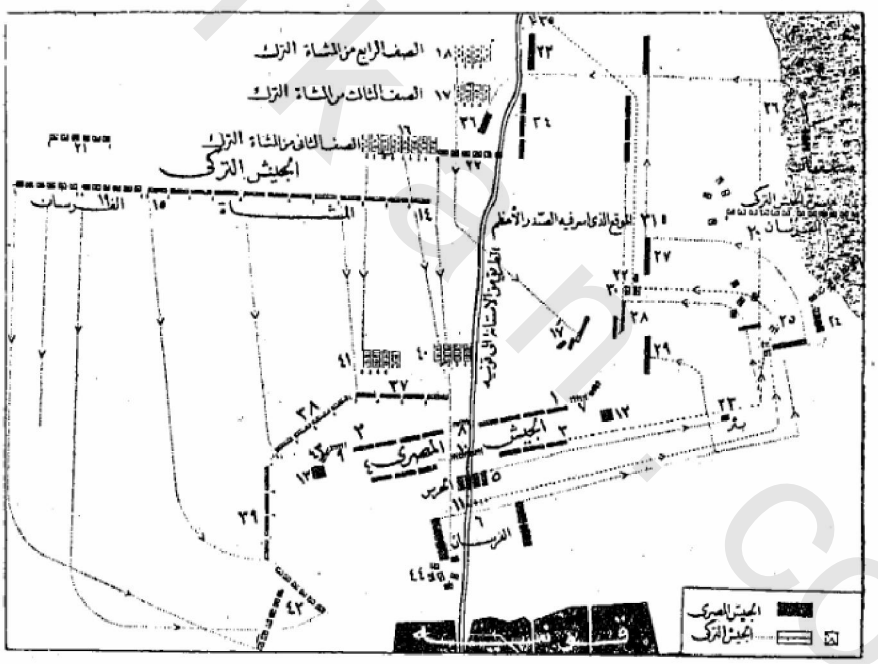

خريطة واقعة قونيه (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية

مواقع المصريين

٢،١	الصف الأول من صفوف الجيش المصري يقوده سليم بك المناسترلي.
٤،٣	الصف الثاني بقيادة سليمان بك (باشا) الفرنساوي على بعد ثلاثمائة خطوة فقط من الخط الأول، وقد اقترب منه إلى هذا الحد بسبب تكاثف الضباب صبيحة يوم الواقعة وتساقط قنابل الترك عليه.
٥	جنود الحرس يقودهم سليم بك الحجازي[١] ويتألف منهم الصف الثالث.
٦	الفرسان يقودهم أحمد بك (باشا) المنكلي وأحمد بك الإستانبولي.
٩،٨،٧	المدافع وقد نصبت في الميمنة والقلب والميسرة بقيادة سليم بك قائد الطوبجية.
١٠	بطاريتان من مدافع الاحتياطي.
١١	بطارية من مدافع الاحتياطي مع الحرس.
١٣،١٢	أورطتان في هيئة مربعين لحماية الجناحين.

مواقع الترك

١٥،١٤	الصف الأول من المشاة.
١٦	الصف الثاني من المشاة.
١٧	الصف الثالث من المشاة.
١٨	الصف الرابع من المشاة.

(١) ذكره «كادلفين وبارو» باسم سليم بك فقط؛ ولكن «ابكاريوس بك» ذكره في كتابه «المناقب الإبراهيمية» ص٧٦ يلقبه بالحجازي.

obeikan.com

١٩	ألايان من الفرسان على يمين الصف الأول من المشاة.
٢٠	ألايان من الفرسان على يسار الصف الأول من المشاة.
٢١	ألاي من الفرسان خلف ١٩.
٢٢	ألاي من الفرسان عن يسار الصف الثاني من المشاة.
،/،	مدافع الترك موزعة أمام صفوف المشاة والفرسان.
٢٣	موقع البئر التي اتجه إليها إبراهيم باشا ليستطلع مواقع الترك.
٢٤	الموقع الذي وصل إليه الفرسان المصريون لمهاجمة الجناح الأيسر للجيش التركي بمعاونة جنود الحرس.
٢٥	الموقع الذي وصلت إليه المدافع المصرية لشد أزر هذه الهجمة.
٢٦	النقطة التي ارتد إليها الجناح الأيسر للجيش التركي في المستنقعات بعد هزيمته أمام هجمة الفرسان المصريين.
٢٩،٢٨،٢٧	المواقع التي وصل إليها المصريون من الفرسان والحرس في تقدمهم وأحاطوا بالصف الثالث من المشاة الترك نمرة (١٧) الذي زحف من موقعه الأصلي إلى حيث سلم سلاحه في الموقع نمرة (١٧).
٣٠	الموقع الذي تقدمت إليه المدافع المصرية الآتية من (٢٦) لتشترك في الحركة السابقة.
٣١	المكان الذي أسر فيه الصدر الأعظم محمد رشيد باشا قائد الجيش التركي.
٣٢	المكان الذي كان به إبراهيم باشا حينما وقع الصدر الأعظم أسيرًا.
٣٤،٣٣	المواقع التي وصل إليها المصريون في تقدمهم شمالًا.

٣٥	الموقع الذي تقدمت إليه المدافع المصرية آتية من الموقع (٣٠).
٣٦	الموقع الذ هزم فيه الألاي التركي نمرة (١٨) أمام هجوم المصريين.
٣٩،٣٨،٣٧	المواقع التي تقدم إليها الصف الأول من مشاة الترك نمرة (١٤-١٥) للإحاطة بميسرة الجيش المصري.
٤١،٤٠	المواقع التي تقدم إليها الصف الثاني من مشاة الترك نمرة (١٦) للاشتراك في الحركة السابقة.
٤٢	المواقع التي تقدم إليها الفرسان الترك نمرة (١٩ و٢١) للاشتراك في الحركة السابقة.
٤٣	انتقال المدفعية المصرية من الموقع (١٠) وانضمامها إلى مدافع الجناح الأيسر حيث اشتركت في كسر هجمة الترك وتشتيت شملهم.
٤٤	المواقع التي تقدم إليها الفرسان الترك نمرة (٢٢) حيث تشتت شملهم.

حركات الأسطول المصري

كان للأسطول المصري فضل كبير في معاونة الجيش خلال الحرب السورية من مبدئها إلى منتهاها؛ فإن هذه الحرب لم تقتصر على البر؛ بل تعدته إلى البحر، وإنا ذاكرون هنا ما قام به الأسطول من الأعمال الجليلة التي ساعدت الجيش على بلوغ النصر.

اشترك قسم من الأسطول في حصار عكا كما قدمنا، فقد أصدر إبراهيم باشا تعليماته إلى سر عسكر الدوننمة المصرية الأميرال «عثمان نور الدين بك» بضرب قلاع عكا من البحر، فتقدم الأسطول (ديسمبر سنة ١٨٣١م) واصطفت سفنه أمام حصون المدينة، وأخذت تضربها بالمدافع.

كان عدد هذه السفن تسع بوارج تقل (٣٨١٠) من البحارة، وسلاحها (٤٨٤) مدفعًا، وهذه أسماؤها كما ذكرها إسماعيل باشا سرهنك[١]؛ وهي: الفرقاطة (كفر الشيخ) وعليها القومندان برسيك الإنجليزي، والفرقاطة (الجعفرية) وقومندانها برغمه لي أحمد قبودان، وعليها علم الأميرال الأول قائد الأسطول، والفرقاطة (البحيرة) وقومندانها عبد اللطيف قبودان (الذي صار باشا وتولى نظارة البحيرة فيما بعد) وتحمل علم الأميرال الثاني مصطفى مطوش باشا، والفرقاطة (رشيد) وعليها السيد علي قبودان، والفرقاطة (شيرجهاد) وعليها نوري قبودان، والفرقاطة (دمياط) وعليها هدايت محمد قبودان، والفرقاطة (مفتاح جهاد) وعليها مصطفى قبودان الجزائري، والسفينة (بومبه) وعليها بيجان قبودان، والسفينة (رهبر جهاد) وعليها علي رشيد قبودان.

أخذت هذه البوارج تطلق مدافعها على حصون عكا طول النهار، ولكنها لم تصبها بضرر يذكر لمتانتها، ثم رست مع باقي سفن الأسطول التي لم تشترك في الضرب، وأصيبت بعض السفن المصرية بأضرار اضطرتها إلى العودة للإسكندرية.

وكان للأسطول المصري جولات مهمة على ظهر البحار خلال الحرب؛ فقد تلقى محمد علي باشا من إحدى سفن العمارة المصرية في شهر يونية سنة (١٨٣٢م) نبأ خروج الأسطول التركي من الدردنيل بقيادة الأميرال خليل باشا رفعت ليشترك في القتال، وكان مؤلفًا من خمس وثلاثين سفينة حربية، فأصدر تعليماته إلى العمارة المصرية بالإقلاع إلى بحر الأرخبيل؛ لتبحث عن الأسطول العثماني وتقاتله، فسارت إلى مياه رودس، وكان الأسطول العثماني قد اتجه في ذلك الحين إلى ثغر الإسكندرية لإمداد الجيش التركي بالرجال والمئونة والعتاد.

(١) في كتابه «حقائق الأخبار عن دول البحار» ج٢، ص٢٤٥.

فلما وصل إلى الإسكندرية كانت الهزيمة قد حلَّت بالجيش التركي في حمص، ثم وقعت هزيمة (بيلان)، فعاد أدراجه، وأقلعت سفنه إلى جزيرة رودس تاركة كميات كبيرة من المئونة لم يستطع الترك حملها لما كانوا فيه من العجلة.

أمَّا العمارة المصرية فكانت مؤلفة من سبع وعشرين سفينة حربية معقودًا لواؤها للأميرال عثمان نور الدين باشا، فسارت تمخر العباب باحثة عن الأسطول العثماني، واجتمع الأسطولان بعد واقعة (بيلان) في مياه قبرص، ومع أن الأسطول التركي كان أكثر عددًا وعُددًا من العمارة المصرية، فإن قبودانه تجنب الاشتباك في قتال مع الأسطول المصري، وخشي أن يلحقه البوار إذا اصطدم به، فآثر أن يلزم خطة الدفاع، وأخذ الأميرال عثمان نور الدين باشا من ناحيته يرقب حركات الأسطول العثماني، دون أن يسعى لمهاجمته، وبقي الأسطولان طويلًا في هذا الموقف، إلى أن سار أميرال الأسطول التركي إلى ميناء (مرمريس) من ثغور الأناضول ليأوى إليها، فتعقبته العمارة المصرية، وحاصرت الميناء، ولكن هياج البحر واشتداد الأنواء في ذلك الفصل من الشتاء حالًا دون استمرار الحصار، فاتجه نور الدين باشا بالعمارة المصرية إلى خليج السودة بجزيرة كريت، وبعد أن بقي الأسطول التركي في ثغر مرمريس عشرين يومًا أقلع إلى مياه الدردنيل، ثم رجعت العمارة المصرية إلى الإسكندرية.

وقد كان للأسطول المصري عامة فضل كبير في تسهيل المواصلات البحرية بين مصر وسورية، ولولاه لما وجدت مصر من سبيل إلى إمداد جيشها إلا بطريق البر المحفوف بالمتاعب والأخطار، ولتعذر عليها الاتصال به وبالبلاد التي فتحتها، فللأسطول المصري فضل كبير في نجاح الحملة على سورية.

المسألة المصرية وتدخل الدول

استرعت انتصارات الجيش المصري أنظار الدول الأوربية، وفتحت باب المسألة المصرية على مصراعيه.

إن المسألة السياسية العالمية المعروفة بالمسألة المصرية بدأت تظهر في تاريخ مصر الحديث منذ الحملة الفرنسية؛ فمن ذلك العهد اتجهت المطامع السياسية الدولية إلى مصر، وتعددت المنازع في شأن مصيرها، فالحملة الفرنسية أول مثار للمسألة المصرية؛ إذ إنها كانت صراعًا بين فرنسا وإنجلترا على فتح مصر واستعمارها، أما قبل ذلك فإن التنافس بشأنها كان في الغالب تنافسًا اقتصاديًّا، فلما جر نابليون حملته على مصر تحول إلى صراع سياسي، وأخذت مطامع إنجلترا تتجه نحو فتح مصر والسيطرة السياسية عليها، ولقد رأيت مما فصلناه في الجزأين الأول والثاني من «تاريخ الحركة القومية» أن الصراع بين فرنسا وإنجلترا بشأن المسألة المصرية استمر طوال الحملة الفرنسية، وبعد انتهائها، وأن انجلترا لم تكن تحارب فرنسا لإجلائها عن مصر فحسب؛ بل لتحل فيها محلها ولكي تحقق مطامعها السياسية والاستعمارية في وادي النيل[1].

واستمرت المسألة المصرية مثارًا للمطامع الإنجليزية منذ أسس محمد علي الدولة المصرية الحديثة، فلما اشتبكت مصر وتركيا في الحرب السورية اقترنت المسألة المصرية بالمسألة الشرقية، فاشتدت المنازعات الدولة بشأنها، وانبعثت المطامع القديمة التي كانت تسعى لها كل دولة حيال السلطة العثمانية.

فالروسيا نظرت بعين الخوف والوجل إلى تقدم الجيش المصري واقترابه عن عاصمة تركيا، وخشيت إذا أطرد هذا التقدم أن يستولي محمد علي باشا على عرش السلطنة ويمد نفوذ الدولة المصرية إلى ضفاف البوسفور والدردنيل والبحر الأسود فيؤسس دولة قوية تقوم على أنقاض السلطنة العثمانية المتداعية الأركان المختلة النظام،

(١) انظر: الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص٦٣، والجزء الثاني ص٢١٨ و٤٣٤، الطبعة الأولى.

وليس مما يوافق سياسة الروسيا أن يقع هذا الانقلاب؛ لأنه يحول دون تحقيق أطماعها في الوصول إلى البواغيز والبحر الأبيض المتوسط، فبادرت إلى التدخل لمعاونة تركيا، وأوفدت الجنرال «مورافييف» MOURAWIEF إلى السلطان محمود ليعرض عليه استعدادها للدفاع بقواتها البرية والبحرية عن السلطنة العثمانية، ومعنى هذا الدفاع من الروسيا بسط حمايتها الفعلية على تركيا، فهال فرنسا وإنجلترا أمر هذا التدخل وخشيتا على سياستهما ومصالحهما أن تستهدف للخطر إذا بسطت الروسيا حمايتها أو نفوذها في تركيا، واتقاء لهذا الخطر بذلتا جهودهما لوقف تقدم الجيش المصري حتى لا تجد الروسيا مسوغًا لحماية تركيا؛ ففرنسا وإنجلترا لم يقصدًا من تدخلهما في المسألة المصرية والمسألة الشرقية مصلحة مصر ولا مصلحة تركيا؛ بل كانتا تعملان لتحقيق أغراضهما الذاتية.

واستخدمت فرنسا علاقاتها الودية مع مصر لإقناع محمد علي بتسوية الخلاف بينه وبين السلطان، وأوفدت إلى الأستانة الأميرال «روسان» ROUSSIN سفيرًا لها ليسعى في فض الخلاف بين تركيا ومصر ويمنع التدخل الروسي.

وبذلك صارت مصر قبلة أنظار الدول الأوربية؛ إذ كان مناط آمالهنَّ إقناع محمد علي باشا بتسوية الخلاف مع تركيا حتى لا يؤدي تدخل الروسيا إلى أزمة أوروبية قد تنتهي بتحكيم السيف بينهنَّ.

فعلى خطة مصر في ذلك الحين كان يتوقف التوازن الأوربي؛ من أجل ذلك وفدت رسل التفاهم على محمد علي باشا من كل صوب.

فجاء الجنرال «مورافييف» إلى الإسكندرية، وقابله وعرض عليه الوساطة بينه وبين السلطان، فأكرم محمد علي وفادته وأحسن لقاءه؛ ولكنه تمسك بوجهة نظره.

وكذلك أرسل السلطان بإيعاز من السفارة الفرنسية مندوبًا عنه وهو خليل باشا ليفاوض محمد علي في حسن الخلاف وديًّا، وأرسل الأميرال روسان إلى محمد علي

يطلب إليه ألا يشتط في طلباته حقنًا للدماء، وأن يكتفي من فتوحه بولايات صيدا (عكا) وطرابلس والقدس ونابلس.

فرفض هذه الشروط وأصر على ضم سورية وولاية أدنة إلى مصر، وقد أصر على الاحتفاظ بإقليم أدنة وهو من صميم الأناضول لما اشتهر عنه من كثرة مناجمه ووفرة أخشابه، ولأنه ينتهي بجبال طوروس التي أراد محمد علي جعلها الحد الفاصل بين مصر وتركيا. أما تركيا فقد ازدادت خضوعًا للروسيا ورضيت أن تحميها بقواتها البحرية والبرية، فجاء أسطول روسي ورسا في مياه البوسفور، ونزلت قوة من الجنود الروس إلى الشواطئ التركية الأسيوية لتدفع غزوة الجيش المصري.

وقد رأى محمد علي باشا أن الدول إنما تسعى إلى هضم حقوق مصر إرضاءً لتركيا، فوقف تجاهها موقفًا مشرفًا استمسك فيه بحقوق مصر، وبعث في هذا الصدد برسائل عدة تدل على قوة يقينه ومضاء عزيمته، وأهمها الخطاب الذي أرسله إلى الأميرال «روسان» سفير فرنسا في الأستانة بتاريخ (٨ مارس سنة ١٨٣٣م) ردًّا على رسالته إليه؛ قال فيه:

«تلقيت رسالتكم المؤرخة (٢٢ فبراير) التي تسلمتها من ياوركم والتي تعترضون فيها علي، وتعلنونني بأن لا حق لي في المطالبة بما عدا بلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام، وأن الواجب علي أن أسحب جيشي فورًا، وتنذورنني بأني في حالة الرفض أستهدف لأخطر العواقب، وقد أضاف ياوركم شفويًّا بناء على تعليماتكم بأني إذا بقيت متمسكًا بمطالبي فسيجيء الأسطول الإنجليزي والروسي إلى سواحل مصر.

على أني يا جناب السفير أتساءل: بأي حق تطلبون مني هذه التضحية؟ إن أمتي بأجمعها تؤيدني في موقفي، وأن في استطاعتي بكلمة مني أن أحرض شعوب الروملي والأناضول على الثورة فيلبوا ندائي، ويمكنني بتأييد أمتي أن أفعل أكثر من ذلك. لقد امتدت سيطرتي على أقطار عدة، والنصر حليفي في كل الميادين، ومع أن الرأي العام يؤيدني في امتلاك سورية بأكملها، فإني قد وقفت زحف جنودي رغبةً مني في حقن

الدماء، ولكي يتسع الوقت أمامي لأتعرف ميول الدول الأوربية، ومقابل هذا الاعتدال وحسن النية وتلك التضحيات العديدة التي بذلتها أمتي، والتي نلت الانتصارات الباهرة بفضلها وبفضل تأييدها لي، تطلبون مني أن أتخلى عن البلاد التي فتحتها وأن أنسحب بجنودي إلى منطقة صغيرة تسمونها ولاية! أليس في هذا حكم عليَّ بالإعدام السياسي؟!

على أنَّ لي ملء الثقة ألا تأبى فرنسا وإنجلترا الاعتراف بحقوقي ومعاملتي بالإنصاف، فإن ذلك مرتبط بشرفهما. وإذا خاب أملي فليس أمامي إلا أن أذعن لقضاء الله، وهنالك أوثر الموت الشريف على احتمال الذل والعار، وسأبذل نفسي بكل ابتهاج فداءً لقضية أُمتي، مغتبطًا بخدمة بلادي حتى آخر نسمة من حياتي. ذلك ما صممت عزمي عليه. وقد روى التاريخ أمثلة عديدة لمثل هذا الإخلاص، ومهما يكن فإن لي وطيد الأمل في أنكم ستقدرون عدالة مطالبي وتؤيدون اقتراحاتي الأخيرة التي قدمتها إلى خليل باشا، وفي انتظار تحقيق هذا الأمل قد كتبت لكم هذا الخطاب الودي الذي تسلمه مني ياوركم يدًا بيد»[1].

الإسكندرية في ٨ مارس سنة ١٨٣٣م

محمد علي

والي مصر

احتلال كوتاهية ومغنيسيا وإقامة الحكم المصري في أزمير

وفي غضون ذلك تقدم إبراهيم باشا بجيشه فاحتل (كوتاهية) وصار على مسافة خمسين فرسخًا من الأستانة، ثم أنفذ كتيبة من الجنود احتلت (مغنيسيا) بالقرب من أزمير (انظر الخريطة الملحقة بهذا الفصل). وأنفذ رسولًا إلى أزمير ليقيم الحكم المصري

(١) «كادلفين وبارو» ص٣٧٥.

بها. وقد وصل الرسول إليها ولم يلق بها مقاومة، وعزل حاكم المدينة «طاهر بك» وأقام بدلًا منه أحد أعيانها منصور زاده (فبراير سنة ١٨٣٣م)، ورحبت المدينة بهذا الانقلاب، ولكن الأميرال روسان سفير فرنسا في الأستانة تدخل في الأمر حتى لا يستفحل النزاع وتتخذ الروسيا احتلال أزمير ذريعة إلى حماية تركيا، فأرسل إلى إبراهيم باشا يعترض على ما فعله رسوله في أزمير وينذره بقطع العلاقات، فلم يسع إبراهيم باشا إلا الإجابة بأنه لا يقصد احتلال أزمير. وبذلك انتهى الخلاف وعاد الحاكم القديم إلى منصبه (مارس سنة ١٨٣٣م).

اتفاق كوتاهية (إبريل – مايو سنة ١٨٣٣م)

بذلت فرنسا جهدها لحسم الخلاف بين محمد علي وتركيا، وجددت مسعاها بين الفريقين، وكان إبراهيم باشا يتهدد تركيا بالزحف على الأستانة إذا لم تجب مطالبه، فاضطر الباب العالي إلى الإذعان وأرسل إلى كوتاهية –حيث كان إبراهيم باشا يقيم بها– مندوبًا عنه يدعى رشيد بك[1] يصحبه البارون «دي فارين» سكرتير السفارة الفرنسية ليقوم بالوساطة بين الطرفين. وبعد مفاوضة دامت أربعة أيام تم الاتفاق على الصلح في (٨ إبريل سنة ١٨٣٣م)، وهو المعروف باتفاق كوتاهية، ويقضي بأن يتخلى السلطان لمحمد علي عن سورية وإقليم أدنه، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز، مقابل أن يجلو الجيش المصري عن باقي بلاد الأناضول.

وقد صارت «التوجيهات» السلطانية بمضمون هذا الصلح، وأرسل الصدر الأعظم إلى محمد علي وثيقة مكتوبة[2] بفحوى هذه التوجيهات، وفيها إسناد ولاية سورية إليه وإلحاقها بولاية مصر وكريت.

---

(١) هو الذي صار فيما بعد الصدر الأعظم «مصطفى رشيد باشا» صاحب الإصلاحات المشهورة في عهد السلطان عبد المجيد.

(٢) منشورة صورتها الفوتوغرافية باللغة التركية في كتاب «خلاصة الوثائق التركية في مصر» للمسيو «جان ديني» Deny لوحة نمرة (٢٣).

ولكن هذه التوجيهات كان ينقصها إقليم أدنه، فبان من ذلك أن الباب العالي أراد الرجوع عن اتفاق كوتاهية بالنسبة لهذا الإقليم، وقد بقيت المسألة موضع خلاف بين الطرفين، ووقف إبراهيم باشا جلاء الجيش حتى ينفذ الباب العالي ما تم الاتفاق عليه، فلم يسع السلطان إلا أن يسلم بالتنازل عن أدنه، وأصدر فرمانًا في (٦ مايو سنة ١٨٣٣م) بمضمون الاتفاق بتمامه، أعلن فيه تثبيت محمد علي باشا على مصر وكريت وإسناد ولايات سورية إليه، وتجديد ولاية إبراهيم باشا على جدة مع مشيخة الحرم المكي، أي إسناد إدارة الحجاز إلى عهدته، وتخويله إدارة إقليم أدنه[1].

وبمقتضى اتفاق (كوتاهية) صارت حدود مصر الشمالية تنتهي عند مضيق (كولك) بجبال طوروس، ويسمى بوغاز كولك تبعًا التسمية الترك المضايق بالبواغيز (وترى موقعة على الخريطة).

وبذلك انتهت الحرب السورية بتوسيع نطاق الدولة المصرية وبسط نفوذها على سورية وأدنه، وتأييد سلطتها على كريت وجزيرة العرب.

ولا يغرب عن البال أن السلطان لم يقبل اتفاق كوتاهية إلا مرغمًا، وكان يضمر السعي لنقضه إذا تهيأت له الفرصة في المستقبل، يدلك على ذلك أنه لم يكد يقر صلح (كوتاهية) حتى عقد سرًّا مع الروسيا المعاهدة المعروفة بمعاهدة «هنكار أسكله سي» (٨ يولية سنة ١٨٣٣م) وهي معاهدة دفاعية هجومية التزمت كل دولة بمقتضاها أن تساعد الدولة الأخرى إذا استهدفت لخطر خارجي أو داخلي، وتعهدت تركيا بأن تأذن

(١) في الفرمان أنه خول تحصيل أموال الجباية فيها؛ ومعنى هذا إدارة الولاية فعلًا كما يستفاد من المخابرات الدولية التي تبودلت في هذا الصدد، فقد أورد البارون «دي تستا» في كتابه «مجموعة معاهدات الباب العالي» ج٢، ص٣٧٧، رسالة المستر «ماندفيل» سفير إنجلترا في الأستانة إلى اللورد بالمرستون وزير خارجيتها بتاريخ (٤ مايو سنة ١٨٣٣م) ينبئه فيها «بأن السلطان خول إبراهيم باشا إدارة أدنة بإسناد «تحصيل أموال الجباية فيها إلى عهدته»، وكذلك رسالة إبراهيم باشا إلى السلطان يشكره فيها على إسناد حكومة أدنة إليه، ولذلك كان الحكم المصري في إقليم أدنة لا يختلف في حدوده ومظاهره عن مثيله في الأقاليم السورية.

للأسطول الروسي بالمرور من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط، وتسد البواغيز في وجه جميع السفن التابعة للدول الأخرى، ومؤدى هذه المعاهدة تخويل الروسيا مد يدها في شئون تركيا وبسط حمايتها الفعلية عليها. وهذه المعاهدة لم يبرمها السلطان على ما فيها من مهانة لتركيا إلا ليسعى في نقض اتفاق كوتاهيه؛ لأنَّ تركيا لم تكن مهددة في ذلك الوقت بخطر خارجي أو داخلي إلا من ناحية مصر. فإبرام معاهدة (هنكار أسكله سي) غداة اتفاق كوتاهية معناه أن تركيا لم تكن خالصة النية في إبرام هذا الاتفاق ولا في إقراره.

الحكم المصري في سورية

دخلت الشام في حكم الدولة المصرية بعد صلح (كوتاهية) الذي توج انتصارات الجيش المصري، وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام، وصار إبراهيم باشا حاكمًا عامًّا للبلاد السورية وقائدًا للجيش المصري.

نظام الحكم المصري فيها

وأخذ إبراهيم باشا في تنظيم سورية وتدبير أمورها الإدارية والسياسية والحربية، فعني بإقرار الأمن والنظام في ربوعها، وأمَّن الطرق، ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالي وأملاكهم وأرواحهم.

وأخذ من الوجهة الحربية يعنى بتوطيد مركز مصر في سورية، فأمن حدودها الشمالية، وعنى بتحصين مضايق جبال طوروس لصد هجوم الترك إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام، ورمم حصون عكا وأسوارها، وشيد الثكنات والمستشفيات، وخطط الطرق الحربية، واستقرت الحاميات المصرية في أهم المدن السورية.

وبلغ عدد الجيش المرابط في سورية نحو سبعين ألف مقاتل، رابط معظمه في الجهات الشمالية القريبة من الحدود التركية.

واتخذ إبراهيم باشا مقره العام في (أنطاكية) لموقعها الحربي، وقربها من التخوم الشمالية وعين محمد شريف بك (باشا)[١] حاكمًا عامًّا على سورية سنة ١٨٣٢م[٢]. ولقب «حكمدار عريستان»، وظل في معظم سنوات الحكم المصري يتولى إدارة الإيالات السورية جميعًا.

وجعل سليمان باشا الفرنساوي على إيالة صيدا (عكا)، وعين إسماعيل بك سنة (١٨٣٨م) حاكمًا لولاية حلب، وعين «محمود نامي بك» أحد خريجي البعثات المصرية محافظًا لبيروت، وبقي في هذا المنصب من سنة (١٨٣٣م) إلى سنة (١٨٤٠م).

وجعل على إدارة الشئون المالية «حنا بك بحري» أحد أعيان السوريين، فصار صاحب النفوذ الأكبر في إدارة شئون الحكومة وأحوالها المالية، وقد ذكر المسيو «جومار» أن تعيين أحد السوريين الأكفاء في هذا المنصب الكبير دليل على رغبة إبراهيم باشا في إسناد كبار المناصب إلى أبناء البلاد، وهو مالم يكن مألوفًا في عهد الإدارة التركية، وقال الدكتور مشاقة[٣] -وهو معاصر للحكم المصري-:

«لم يمض على حصار عكا زمان حتى أرسل محمد علي تفويضًا إلى حنا البحري في سن النظامات لحكومة سورية على النمط الحديث، وكان حنا البحري على جانب عظيم من أصالة الرأي، وله القدح المعلى في السياسة المدينة، وكان العدل والإنصاف شأنه والنزاهة زمامه، لا فرق عنده بين القوي المثري والضعيف الفقير، أو المسلم والذمي، وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد علي باشا الذي كان عارفًا أن لا قيام للدولة إلا بالعدل والإنصاف».

---

(١) هو الذي صار وزير مالية مصر في أواخر عهد محمد علي، وهو غير «شريف باشا الكبير» رئيس الوزارة في عهد توفيق باشا، وصاحب المواقف المشهودة في التمسك بالسودان.

(٢) العدد (٤٥٥) من «الوقائع المصرية» المصادر في ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨هـ (نوفمبر سنة ١٨٣٢م).

(٣) في كتابه «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» ص١٠٢.

وعين إبراهيم باشا لكل بلد متسلمًا؛ أي حاكمًا يتولى إدارتها.

وألف في كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلسًا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين (١٢ و٢١) عضوًا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلد وتجارها، وتنظر هذه المجالس في مصالح كل بلدة ومطلوبات الميري وإليها ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها.

ووحد الإدارة ووطد سلطة الحكومة المركزية، وأبطل سلطة الأمراء والرؤساء الإقطاعيين وخضد شوكتهم، وضرب على أيدي الأشقياء وقطاع الطرق، وبسط رواق الأمن في البلاد، ونظم طرق الجباية، وعامل الأهلين بالعدل والمساواة من غير تفريق بين الطبقات والمذاهب والأديان، وكان ذلك أجل أعمال الإدارة المصرية في سورية.

ونشطت التجارة والزراعة في عهد الحكم المصري، فعمم إبراهيم باشا تربية دود القز (الحرير)، وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض، وغرس في ضواحي أنطاكية أشجار الزيتون وازدهرت زراعة العنب، وعنى باستخراج بعض المعادن؛ ولا سيما الفحم الحجري في لبنان، وراجت التجارة واتسع نطاقها، وكثرت المعاملات بين سورية والبلاد الأوربية.

وقد كان دخل الولايات السورية أقل من الخرج؛ أي أن غلاتها تقل عن نفقاتها، وخاصة لما يقتضيه الإنفاق على الجيش الموزع على المدن من المال، فكانت الخزانة المصرية توازن بينهما فتسد عجز الميزانية وتحتمل مصر هذا الغرم في مالها.

كانت الإدارة المصرية في سورية رغم ما بها من عيوب أصلح من الحكم التركي السابق، وحسب هذه الإدارة، فضلًا أنها أقرت الأمن في البلاد واستنقذتها من الفوضى.

ويكفيك لتتحقق مبلغ تقدم الإدارة السورية في ظل الحكم المصري أن تقرأ ما كتبه مؤرخو سورية في هذا الصدد.

قال الأستاذ «محمد كرد علي بك» رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق[١] خلال كلامه عن الفتح المصري:

«كان من أول أعمال إبراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجالس الشورى وغيرها من النظم الحديثة، وترتيب المالية، فجعل نظامًا لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل، لا تفاوت في طباقاتهم ومذاهبهم، ولذلك لم يلبث الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ أن استثقلوا ظل الدولة المصرية. وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء، وينالهم من ذلك مصة الوشل؛ مع أن البلاد رأت في أيام إبراهيم باشا إبطال المصادرات وتقرير حق التملك، وتوطد الأمن في ربوعها، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة، وعممت تربية دود القز (الحرير)، واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان)، وفرض على لبنان (٦٧٨٢) كيسًا يتقاضى الأمير ضعفيها ويدخل في خزانته الخاصة المال الزائدة على المفروض.

وأكد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم، وأخربت بعض القلاع التي كان يعتصم فيها الثائرون أحيانًا مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس، وقرب العلماء والشعراء، ورخص للأجانب في إرسال معتمديهم إلى دمشق، وكانوا يمنعون من دخولها قبله، فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس، ويقال على الجملة: إن الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام، ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه إبراهيم عملًا بإيعاز أبيه بتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الأهلين بالضرائب، وأقل الضرائب الشخصية (١٥) قرشًا، وأعظمها خمسمائة قرش، فإن هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل أهل حلب وأهل دمشق».

(١) في كتابه «خطط الشام» ج٣، ص٥٧.

وقال الدكتور «أسد رستم» -أحد أساتذة التاريخ بجامعة بيروت الأمريكية؛ لمناسبة الكلام عن محمود نامي بك محافظ بيروت في عهد إبراهيم باشا-:

«لما عزم عزيز مصر إلى إرسال بعض ضباط بحريته إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم وممارسة الفنون الحربية، انتخب حسن أفندي الإسكندراني وشنان أفندي والأمير محمود نامي وأرسلهم إلى فرنسا، فتلقى محمود علومه العالية وتخصص في الرياضيات، ولما رجع من فرنسا، عينه محمد علي باشا محافظًا على بيروت، وأبقاه في هذا المنصب سبع سنوات (١٨٣٣-١٨٤٠م) تنشقت بيروت في خلالها نسيمًا منعشًا من الغرب المتمدن، فاستيقظت من سبات العصور الوسطى، وخطت خطوتها الأولى في سبيل رقيها الحديث، وكان محمد علي باشا وابنه إبراهيم وعامله الأمير محمود نامي لبيروت أول العثمانيين الذين أخذوا الأفكار الحديثة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة، وهم أول من وضعها؛ وضع الإجراء والتنفيذ. نعم إن سلطتهم في بيروت كانت مطلقة، ولكنهم أحكموا التدبير وأحجموا عن الحكم الاستبدادي، فشكلوا في هذه المدينة من سكانها مجالس تباحثوا مع أعضائها في جميع أعمالهم المتعلقة، فكان هناك مجلس للمشورة يدعى مجلس شورى بيروت، وديوان للصحة وآخر للتجارة»[١].

وقال «سليمان بك أبو عز الدين» أحد أدباء سورية[٢]:

«على أنه لا يسع المنصف إلا الاعتراف بأن المبادئ التي شاء محمد علي أن يؤسس عليها الإدارة والقضاء في سوريا كانت صحيحة بوجه عام؛ لأنها كانت ترمي إلى تنظيم الأعمال وتوزيع الاختصاص بين هيئات مختلفة ومنع الاستبداد بتقييد الحكام وغيرهم من الموظفين بالنصوص القانونية، وتدريب الأهلين على إدارة شئونهم المحلية، غير أن جهل الحكام كيفية تطبيق القوانين وفطرتهم الاستبدادية وعدم وجود مراقبة فعالة على أعمالهم وعدم مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها وكثرة الاضطرابات في البلاد حالت دون

(١) مجلة الكلية (التي تصدر عن جامعة بيروت) مجلد ١٣، ص١٣٠.

(٢) في كتابه «إبراهيم باشا في سوريا».

بلوغ الغاية التي وضعت تلك القوانين من أجلها، ولإبراهيم باشا فضل خاص في السنين بعد الفتح في ضبط الأحكام وشدة مراقبة الحكام وإجراء العدل بين الأهلين، وقد كان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم، فعاقب كثيرين منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة أو غير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة، فلو استمرت حكومة محمد علي في سوريا ناهجة هذا النهج القويم الحكيم لملكت قلوب السوريين»[1].

وقال في موضع آخر: «من التغييرات الاجتماعية التي نشأت عن حكم محمد علي في سوريا إطلاق الحرية الدينية، ونشر روح الديمقراطية بالضرب على أيدي الزعماء والمتغلبين، ونزع السلطة من أيديهم، وإنشاء العلاقة ما بين أفراد الشعب وحكامه مباشرة، وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ولها حق النظر في الشئون المحلية بعد أن كان النظر في جميع الشئون منوطًا بحكام مستبدين» (ص٣١١).

ثم قال في موضع آخر: «لم تقم حكومة محمد علي في سوريا بأعمال علمية وأدبية ذات شأن، فالمدارس التي أنشأتها كانت قليلة العدد والتأثير، وكانت في معظم الأوقات مشتغلة بالفتح وتسكين الاضطرابات وإخماد الثورات ومقاومة الدسائس والاعتداءات الداخلية والخارجية، على أن قيامها في سورية مهد السبيل لنهضة علمية أدبية؛ لأن تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لإدارة الأحكام والقيام بالأعمال القضائية والمالية والكتابية، وسهلت قدوم الإفرنج من مرسلين دينيين وتجار وغيرهم، فأنشئت بواسطتهم المدارس، كما أن إرسال بعض الشبان لدرس الطب في القطر المصري، واستخدام بعض السوريين في حكومة محمد علي باشا أنشأ صلة أدبية دائمة بين القطرين، فامتدت تلك الصلة ونتائجها إلى وقتنا الحاضر، وأدخلت حكومة محمد علي روحًا علمية إلى البلاد في أعمالها، فأنشأت محجرًا صحيًّا في بيروت، وبذلت اهتمامًا يذكر في الأمور الصحية، وكانت تجري فيها حسب مشورة الأطباء الصحيحة كما فعلت

(١) كتاب «إبراهيم باشا في سوريا» لسليمان بك أبو عز الدين، ص١٣٩.

في دمشق بإنشاء مصارف للمياه الراكدة، واستخدام المهندسين في ذلك وفي الإنشاءات التي تحتاج إلى معرفة فنية»[١].

هذا، وقد زار المارشال «مارمون» (الدوق دي راجوز)، سورية سنة (١٨٣٤م) فأعجب بما رآه من إقرار السكينة والأمن فيها، وكتب في رحلته يقول:

«إذا بقيت أعمال محمد علي وبقي الأمن الذي بسطه فيما فتحه من البلاد، كما صار إليه الآن من الاستقرار الذي يدعو إلى الإعجاب، فإن حالة هذه البلاد سينبه شأنها وستتطور تطورًا كبيرًا»[٢].

ويقول المسيو «لويس بلان» المؤرخ الفرنسي في كتابه «تاريخ عشر سنوات»:

«إذا أردنا أن نعرف ما فادته سورية من انتقالها من الحكم التركي إلى حكم المصريين، فما علينا إلا أن نلقي نظرة على سهول أنطاكية التي اكتست بأشجار الزيتون وضواحي بيروت التي كثر فيها الكروم، والنشاط الذي انبعث في حلب ودمشق. صحيحٌ أن محمد علي أظهر جنفًا وقسوة في حكم سورية، ولكن في ظل هذا الاستبداد العارض الذي كان ضرورة ولزامًا حيث سادت الفوضى في تلك البلاد، قد نالت سورية النظام والعمران»[٣].

الثورات في الشام

لكن الإدارة المصرية في سورية لم تلبث أن اصطدمت بثورات محلية نشبت في مختلف الجهات، ورزأت مصر بضحايا كثيرة، وحملتها متاعب وجهودًا كبيرة لإخمادها.

فلنتكلم عن أسباب هذه الثورات.

---

(١) ص٣١٥.

(٢) «رحلة المارشال الدوق دي راجوز» ج٣، ص٢٨.

(٣) «تاريخ عشر سنوات» الجزء الخامس، ص٤٢١.

وعد إبراهيم باشا السوريين بأن يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الأموال الأميرية، وقد بر بوعده في السنوات الأولى من حكمه، فخفف عنهم بعض الأعباء المالية، وأخذ في تنشيط الزراعة والتجارة، فشعر السوريون بالاطمئنان إلى الحكم المصري وركنوا إليه.

ولكن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت لما أصدره محمد علي باشا إلى ابنه في أواخر سنة (١٨٣٣م) وأوائل سنة (١٨٣٤م) من الأوامر التي أثقلت كاهل الأهلين بأعباء فادحة؛ وهي:

أولًا: احتكار الحرير في البلاد السورية.

ثانيًا: أخذ ضريبة الرءوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم.

ثالثًا: تجنيد الأهالي.

رابعًا: نزع السلاح من أيديهم.

وقد تبرَّم الأهالي بهذه المحدثات وتذمروا منها؛ لأن احتكار الحكومة للحرير من شأنه إلحاق الضرر بمنتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين مكاسبهم منه.

وقد نفروا كذلك من ضريبة الرءوس وخاصة المسلمين؛ لأنهم ما كانوا ملزمين بها من قبل، وزاد في تذمرهم تسخير الحكومة للأهالي في الأعمال العامة.

وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التي أفضت إلى الثورة، فقد نفذ التجنيد بطريقة قاسية تثير الخواطر، وكان كثير من المجندين يرسلون إلى جهات لا تقع إلى أهلهم شيء من أخبارهم فيها، وجاء نزع السلاح ثالثة الأثافي؛ لأن معظم الأهالي كانوا يحملون السلاح ليدفعوا به سطوات البدو والرحل وعدوانهم، فانتزاع السلاح من أيديهم أمر لا تقبله نفوسهم عن طاعة واختيار، ومن هنا نشأت الثورات والفتن.

وقد كان للدسائس التركية والإنجليزية عمل كبير في تحريك تلك الثورات؛ فإن الترك والإنجليز ما فتئوا يستفزون السوريين إلى الثورة ويوزعون عليهم الأسلحة ويحرضونهم على القتال ويستميلون إليهم رؤساء العشائر والعصبيات؛ تارة بالمال وطورًا بالوعود، حتى أفلحوا في تهيئة البلاد للثورة، كما أن بعض إصلاحات إبراهيم باشا كانت من أسبابها، فقد مرَّ بك أنه أبطل سلطة الرؤساء الإقطاعيين وضرب على أيدي الأشقياء وقطاع الطرق الذين كانت لهم سطوة كبيرة في بعض البلاد، فهؤلاء وأولئك قد ساءهم انتزاع السلطة من أيديهم، فكانوا مدفوعين بوازع المنافع الشخصية إلى تحريض الأهلين على الثورة بالحكم المصري. قال الدكتور مشاقة في هذا الصدد خلال كلامه عن نظام الحكم المصري في سورية:

«هذا النظام -وإن يكن عادلًا وشريفًا- قد كان باعثًا قويًّا على كره الأمراء والمشايخ للمصريين حيث كفَّ يدهم وأوقف مطامعهم عند حد لا يمكن اجتيازه، وأمات استبدادهم بالشعب، وجعلهم أمام الشريعة سواء لا امتياز ولا فرق بينهم وبين أفراد الرعية، فحنقوا على الدولة المصرية وودوا إزالتها وإرجاع الحكومة التركية»[1].

وقائع الثورة
ثورة فلسطين

وصلت أوامر محمد علي بالمحدثات الجديدة إلى إبراهيم باشا، وكان في (يافا) فبادر من فوره إلى إذاعتها بين القبائل وفي أنحاء البلاد، فثقلت هذه الأوامر على الناس وطلبوا رفعها، فلم يجابوا إلى طلبهم، فظهرت بوادر الاضطرابات في فلسطين.

ابتدأت الثورة على شواطئ نهر الأردن بالقرب من (بيت المقدس) في شهر إبريل سنة (١٨٣٤م)، وتواطأت القبائل في هذه الجهات على ألا يذعنوا لتلك الأوامر، وفي هذا إعلان للثورة.

---

(١) «مشهد العيان» ص١٠٣.

فلما علم إبراهيم باشا بنبأ هذا العصيان سار بالجيش من يافا إلى بيت المقدس، وقد كان لمبادرته تأثير كبير أضعف عزيمة الثوار، وهناك جمع نبهاء القوم وأكابرهم (إبريل سنة ١٨٣٤م) فاستوضحهم مقصدهم؛ فأجابوه بأنهم لا يعارضون في احتكار الحكومة للحرير؛ لكنهم يعارضون أشد المعارضة في نزع السلاح وفي تجنيد شبان البلاد في الجيش، وأنهم تلقاء ذ لك يؤدون الضريبة ضعفين، ويقدمون بعض أولاد المشايخ رهينة لضمان طاعتهم وإخلاصهم؛ غير أن إبراهيم باشا أَبَى أن يتهاون في تنفيذ أوامر أبيه، فاستمهلوه مدة يراجعون قومهم وعشيرتهم، وانفض الاجتماع على غير طائل، وعاد إبراهيم باشا إلى يافا ينتظر الجواب الأخير الذي وعد المجتمعون بإبلاغه إياه بعد مشاورة الأهالي، ولكي ينتظر ورود النجدات والتعليمات من مصر، وكان انتشار الوباء في هذه الجهات مما دعاه إلى التعجيل بمغادرة بيت المقدس، فآثر البقاء في يافا؛ إذ لم يكن الوباء وقع فيها.

أخذت الثورة تستفحل، وخاصة لما ذاع بين الأهالي من أن تركيا تتأهب بجيش جديد لاسترجاع الشام من محمد علي، فجنح البدو الضاربون بجوار (البحر الميت) إلى العصيان، وامتدت الثورة إلى نابلس.

قمع العصيان

كان زعماء العصيان في تلك الجهات حاكم (نابلس) المسمى الشيخ «قاسم الأحمد»، وهو من رؤساء العشائر ذوي العصبيات القوية، وكان منهم زعيم آخر لا يقل عنه نفوذًا ومكانة وهو (أبو غوش) صاحب قرية العنب الواقعة بين بيت المقدس ويافا.

هاجمت جماعة (أبو غوش) المخافر المصرية المعهود إليها تأمين السبل بين يافا وبيت المقدس من سطو قطاع الطرق، فقفلت الحامية راجعة إلى يافا لقلة عددهم إزاء المهاجمين.

وكذلك هاجم العصاة حامية (بيت المقدس)، وكانت تبلغ ألف مقاتل، فقتل منهم خمسون جنديًّا، واضطر القائد إلى الامتناع في قلعة المدينة حتى يأتيها المدد.

فلما علم إبراهيم باشا بهذه الواقعة أنفذ ألايا من الفرسان بقيادة الميرلاي حسن بك لنجدة الحامية وللتنكيل بقبيلة (أبي غوش)، ولكن النجدة المصرية لم تقوَ على مقاومة العصاة، ورجعت مهزومة مضعضعة بعد أن قتل قائدها ونحو ثلاثين من جنودها، وتكاثر الثوار على القدس واقتحموا باب داود (من أبواب المدينة) ودخلوا منه. ووقع قتال شديد بينهم وبين الحامية المحصورة في القلعة، ونهبوا حوانيت المدينة وبعض بيوت لليهود، كذلك هاجم العصاة (الخليل) وقتلوا حاميتها، وكان عددها (٢٠٠) جندي.

فلما علم إبراهيم باشا باستفحال الثورة جمع جيشًا من سنة آلاف جندي، وقام على رأس هذا الجيش، فسار من يافا في شهر يونية سنة (١٨٣٤م)، وزحف على معقل العصاة في قرية (العنب) التي امتنع بها جماعة (أبي غوش)، وكانت محصنة تحصينًا منيعًا، فحاصرها الجيش المصري واستمر القتال حولها ثلاثة أيام متوالية، وفي اليوم الثالث دخل المصريون القرية، فكان سقوطها في يدهم سببًا في تشتت العصاة، واحتل المصريون الطرق المفضية إلى (بيت المقدس) وفرق الجيش جموع العصاة ودخل المدينة بعد أن فر كثير من أهلها ممن انضموا إلى الثوار، ووقعت ثلاث معارك بين الجيش المصري والعصاة كان النصر فيها للمصريين.

على أن هذا القتال قد حمَّل الجيش خسائر جسيمة ومتاعب هائلة، فتحصن إبراهيم باشا في بيت المقدس.

وفي غضون ذلك عمل على التفريق بين القبائل وضرب بعضها ببعض على الطريقة التي اتبعها في حرب الحجاز، وأفلح في استمالة بعض القبائل فتفككت عراها، وعقد سليمان باشا الفرنساوي اتفاقًا مع أولاد (أبي غوش) تعهدوا فيه أن يؤمنوه على اجتياز معاقلهم، وأن يوالوا الحكومة المصرية على أن تطلق سراح أبيهم الذي كان سجينًا في عكا، وعلى العفو عنهم، وبذلك أمنت الطريق بين يافا وبيت المقدس.

وفي أثناء ذلك عرض الشيخ قاسم حاكم نابلس على إبراهيم باشا أن يقدم طاعته على أن يعفي النابلسيون من الخدمة العسكرية، وجرت بينهما في هذا الصدد مفاوضات، فلما تم الاتفاق مع جماعة (أبي غوس) واستوثق إبراهيم باشا من ولائهم قطع تلك المفاوضات.

حضور محمد علي باشا

لما استفحل أمر الثورة اعتزم محمد علي باشا المجيء إلى فلسطين؛ ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على حركات القتال التي كان الغرض منها قمع العصيان، فحضر إلى يافا يصحبه عدد كبير من الجند، وكان إبراهيم باشا وقتئذ في القدس، فذهب لاستقباله في يافا.

وكان العصيان قد امتد إلى (صفد)، فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود، فعهد محمد علي إلى الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان -وكان على ولاء تام للحكومة المصرية- أن يخمد هذا العصيان، فصار بالأمر وزحف على (صفد) وحاصرها، وسلمت من غير قتال، وأعاد العصاة ما نهبوه من اليهود.

وقد برَّ إبراهيم باشا بوعده لآل أبي غوش؛ فأطلق سراح زعيمهم وعين أحد أبنائه متسلمًا (حاكمًا) للقدس.

إخماد الثورة

وجرد جيشًا لمحاربة (الشيخ قاسم) حاكم نابلس، فدار قتال شديد بينهما انتهى بهزيمة الشيخ قاسم وفراره مع أتباعه إلى (الخليل).

وفي غضون ذلك عاد محمد علي باشا إلى الإسكندرية بعد أن اطمأن من ناحية الجيش المصري ومركزه، فوصل إلى الإسكندرية في يولية سنة (١٨٣٤م).

احتل الجيش المصري قرى (نابلس)، ثم تعقب الشيخ قاسم ورجاله الأشداء إلى (الخليل)، وتطاحن الفريقان ثلاث ساعات انكسر بعدها الثوار، فدخل الجيش

(الخليل)، وانسحب المنهزمون إلى (الكرك) و(السلط) فتعقبهم إبراهيم باشا إلى (الكرك) ولقي جنوده مشقات هائلة في هذه الحملة لاشتداد القيظ والعطش، وسقط منهم نحو ثلاثمائة مصابين بالرعن (ضربة الشمس)، واحتل الجيش المصري الكرك، وحمى القتال حول قلعتها التي اعتصم بها الثوار، وتكبد المصريون خسائر جسيمة في هجومهم على القلعة وارتدوا عنها قليلًا ريثما تبلغهم المدفعية، فانتهز الثوار هذه الفرصة وأخلو القلعة وانسلُّوا منها إلى (السلط)، وتقدم إبراهيم باشا إلى السلط فسلم أهلها من غير قتال.

وفر الشيخ قاسم ومن معه من زعماء العصيان إلى البادية، ونزلوا على عرب عنزة، ولكن إبراهيم باشا تعقبهم وما زال بهم حتى أخذهم جميعًا وقتلهم، وبذلك تم إخماد الثورة في فلسطين، وأذعنت القبائل لسطوة إبراهيم باشا وشدة بأسه.

اضطرابات أخرى

وقد هاجت الخواطر في دمشق لما أوقع التجنيد من الحزن في نفوس أهالي المجندين، وفر عدد كبير من الناس إلى البادية وإلى الجبال، وخشي شريف باشا والي إيالات الشام أن يعم الهياج، وخاصة بعد ورود أنباء ثورة فلسطين، فكف عن التجنيد؛ لكنه جمع السلاح من أيدي الأهالي.

وكذلك وقعت اضطرابات في طرابلس (سنة ١٨٣٤م) وائتمر الأهلون بالحامية، فاضطرت أن تنسحب إلى الميناء، فأرسل إبراهيم باشا المدد إلى طرابلس، وعاقب مثيري الفتنة بإعدام ثلاثة عشر منهم، وثارت الفتن في (عكار) و(صافيتا) و(الحصن)، فأخمدتها القوة المسلحة، ووقعت كذلك اضطرابات أقل شأنًا منها في (حلب) و(أنطاكية) وبعلبلك وبيروت.

ثورة النصيرية

وشبت الثورة في بلاد (النصيرية) شرقي اللاذقية في أكتوبر سنة (١٨٣٤م)، وكانت أهم ثورة بعد ثورة فلسطين، وهاجم الثوار (اللاذقية) فأمدها إبراهيم باشا، وزحفت قواته على بلاد (النصيرية) ونشبت معارك عدة بينها وبين الثوار انتهت بانتصار الجيش المصري ونزع السلاح من أيدي الثوار وتجنيد نحو أربعة آلاف من أهل تلك البلاد.

وقد نفذ إبراهيم باشا قاعدة نزع السلاح والتجنيد في البلاد التي أخمد الثورة فيها، واستتب الأمن في ربوعها، وكان اللبنانيون يعاونون الجيش المصري في إخماد تلك الثورات فترك لهم سلاحهم إلى سنة (١٨٣٥م)، ثم عمد إلى تجريدهم منه وبدأ بالدروز، وخادع المسيحيين أنه لا يريد نزع أسلحتهم، فعاونوه على تجريد الدروز، وبعد أن تم له ذلك عاد إلى أولئك فجردهم من سلاحهم، واستتبت السكينة في سورية ولبنان، فعمدت الحكومة إلى تجنيد الأهالي من البلاد كافة، وترتب على ذلك فرار الكثير من الشبان إلى البادية، مما أضر بالحالة الاقتصادية ضررًا بليغًا.

ثورة حوران

كان إبراهيم باشا قد أعفى دروز حوران من التجنيد، ثم تراءي له أن يطبق عليهم نظام التجنيد، وحجته أنه في حاجة إلى زيادة عدد الجيش استعدادًا لمقاومة هجوم العثمانيين الذي جاءت الأخبار بقرب وقوعه.

فتمرد الدروز على طلب حكومة دمشق، وكان من ذلك نشوب ثورة خطيرة في حوران (نوفمبر سنة ١٨٣٧م) وهي أشد ثورة عاناها الحكم المصري في سورية.

أنفذ إبراهيم باشا ثلاث حملات لكفاح تلك الثورة وإخمادها؛ فالحملة الأولى ألفها من (٤٥٠) من فرسان الهوارة[1]، ففازت في بدء القتال على الثوار في (بصرى)

(١) إحصاء الدكتور مشاقة في كتابه «مشهد العيان» ص١٦.

ولكن الثوار استدرجوها إلى الجهات الجبلية الوعرة في بلاد اللجاة[١]، وأمر قائد الحملة بالزحف عليها، حتى إذا بلغ الوعر وانحصر فيه، انقض عليه الدروز، فدارت بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية، فقتل قائدها وبادت الحملة قتلًا وأسرًا وتشريدًا.

ولما أبلغ إبراهيم باشا نبأ هذه الواقعة وكان في (أنطاكية) أجمع لحملة جديدة يقودها بنفسه؛ لكنه علم باحتمال تقدم الترك نحو الحدود الشمالية، فاضطر إلى البقاء في (حلب) وأرسل إلى أبيه يستمده، وطلب منه أن ينفذ إليه أحمد باشا المنكلي وزير الحربية المصرية لقيادة الحملة، فجاء هذا على جناح السرعة، وقاد الحملة الجديدة وكان فيها (٦٠٠٠)[٢] مقاتل، وزحف على حوران، فأخذ الثوار يستدرجونها كما استدرجوا الحملة الأولى من قبل إلى أن أوغلت في الجهات الوعرة، فقاتلها الثوار في معركة انتهت بهزيمة الحملة، وخسرت من رجالها نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح، وجرح قائدها «أحمد باشا المنكلي» جراحًا بالغة.

تصدعت هيبة الجيش المصري بانتصارات الدروز، واستشْرت الثورة من حوران إلى (وادي التيم) فثار الدروز فيها بقيادة (شيلي العريان) وقطعوا مواصلات الجيش. وجهز إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل، أطبق بها على ثوار حوران ووادي التيم.

ونشبت الحرب وكانت سجالًا، وإلى أن انتهت بتسليم دروز (وادي التيم)، ثم تسليم شيلي العريان وانحصار الثورة في (اللجاة) ثم انتهت بإخماد ثورة اللجاة (أغسطس سنة ١٨٣٨م).

---

(١) على حدود حوران جنوبي دمشق بشرق.

(٢) إحصاء مشاقة، ص١١٧.

وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر تكبد فيها الجيش المصري خسائر فادحة، ولقي فيها من الأهوال مالم يلقه في إخماد الثورات السورية الأخرى.

وغنيٌّ عن البيان أنه كان في إمكان مصر أن تتفادى هذه التضحيات الأليمة والخسائر الفادحة لو لم يتشدد محمد علي باشا في تجنيد السوريين ونزع أسلحتهم؛ إذ لم يكن من الحكمة ولا من حسن السياسة أن تبادر دولة فاتحة إلى تجنيد الأهالي في بلاد حديثة عهد بفتحها ولما يستقر بعد حكمها فيها، وخاصة إذا كان أهلها قد اعتادوا من قديم الزمن حمل أسلحتهم، ولم يألفوا نظام التجنيد الإجباري، ولو أن محمد علي جرى على الهُوَيْنَا في كلا الأمرين، وترك الزمن تحقيقهما تدريجًا، لما استهدف الجيش المصري لهذه الثورات التي أودت بحياة عشرة آلاف مقاتل ونيف، وذلك أكثر من العدد الذي أستطاع تجنيده من السوريين، وأكثر مما خسرته مصر في المعارك الحربية بسورية والأناضول، هذا فضلًا عن أن إخماد الثورات بالقوة والجبروت قد أوغر صدور السوريين على الحكم المصري؛ فبعد أن استقبلوه في بدء الفتح بقبول حسن وفضلوه على الحكم التركي، جنحوا بعد ذلك إلى قديمهم، ولقيت الدعاية التركية بينهم مرعى ومأوى.

على أنَّه يجب ألا يغرب عن البال ما كان للدسائس الإنجليزية والتركية من الأثر الكبير في تحريض السوريين على الثورة كما قدمنا، ولكن مما لا نزاع فيه أن هذه الدسائس ما كانت لتفلح لو لم تلجأ الحكومة المصرية إلى إثارة الخواطر بنزع سلاح الأهلين وتجنيدهم جبرًا. ومن جهة أخرى فإن الحكومة المصرية رغبة منها في منع ورود الأسلحة إلى البلاد أمرت بمنع دخول السفن التركية إلى الثغور السورية، وصدت ورود القوافل من جهات الأناضول، فأصاب التجارة من هذه وتلك ضرر كبير، وقد كان للدسائس الإنجليزية وسوء الحالة الاقتصادية في أواخر عهد الإدارة المصرية أثر كبير في الحرب السورية التي شبت بين مصر وتركيا وحلفائها عقب إبرام

معاهدة لوندره، فإن الجيش المصري قد لقي فيها من مقاومة السوريين ما زاد مركزه حرجًا كما سيجيء بيانه.

الحرب السورية الثانية وواقعة نصيبين (٢٤ يونية سنة ١٨٣٩م)

ما فتئت تركيا بعد هزيمتها في معركة (قونية) وإبرامها اتفاق (كوتاهية) تعد المعدات وتبذل الوسائل لاسترجاع سورية وإقليم أدنة إلى حوزتها، فحشدت منذ سنة (١٨٣٤م) جيشًا في (سيواس) تأهبًا للزحف على سورية عند سنوح الفرصة، وعهدت بقيادته إلى رشيد باشا قائد الجيش العثماني الذي أسر في واقعة قونية، فأخذ يستعد للزحف آملًا أن يظفر بالجيش المصري فيمحو ما لحقه من العار والهزيمة في واقعة (قونية).

فتصميم تركيا على القتال واعتزامها استراجاع سورية بدأ عقب هزيمتها في (قونية)، ولم يؤخرها عن امتشاق الحسام حتى سنة (١٨٣٩م) إلا شعورها بأنها أضعف جندًا من مصر، فأخذت تتحين الفرصة المناسبة للثأر. على أنها ما فتئت طول هذه المدة تدس الدسائس لمصر في سورية وتحرض أهلها على الثورات وخلع أيديهم من الطاعة.

ثم توفي «رشيد باشا» سنة (١٨٣٦م)، فخلفه في قيادة الجيش العثماني «محمد حافظ باشا» أحد قواد تركيا المشهورين في ذلك العصر.

وفي خلال ذلك حدثت مفاوضات بين تركيا ومصر؛ لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية، فأوفد السلطان محمود سنة (١٨٣٧م) مندوبه (صارم أفندي) ليفاوض في ذلك محمد علي؛ لكن هذه المفاوضة أخفقت؛ إذ لم يتفق الطرفان على شروط يقبلانها.

محمد علي وإعلان الاستقلال

ولما أخفقت تلك المفاوضات ورأى محمد علي دسائس الأستانة تزداد في سورية، اعتزم إعلان الاستقلال ليقطع آخر سبب يربط مصر بتركيا، واستدعى وكلاء الدول في مصر وأعلنهم بعزمه هذا (مايو سنة ١٨٣٨م).

وهذه هي المرة الثانية التي اعتزم فيها محمد علي إعلان الاستقلال؛ فالمرة الأولى سنة (١٨٣٤م) عقب الحرب السورية الأولى؛ إذ صارح وكلاء الدول بما صمم عليه، فرفضت الدول طلبه، وحذرته من العاقبة[١]، ثم جدد عزمه سنة (١٨٣٨م)[٢] معتمدًا على حق مصر، ولأن استقلالها هو خير ضمانة لاستتباب السلام في الشرق.

وكان محمد علي يعتقد أن الدول لا تعارضه في إعلان الاستقلال أسوة بما فعلته حيال اليونان؛ إذ عضدتها في تحقيق استقلالها وانفصالها عن تركيا وتأييدها في مطالبها القومية، ولكن الدول الأوربية تنظر إلى مصر بغير العين التي تنظر بها إلى اليونان، فاعترضت على ما عزم عليه محمد علي، وحذرته من جديد عواقب عمله، وبدأ تحيزها لتركيا جليًّا، وظهر تحاملها على مصر؛ مما جرأ السلطان محمود على التحرش بمحمد علي، فأدى ذلك إلى وقوع الحرب السورية الثانية.

مقدمات الحرب السورية الثانية

كان سفير إنجلترا في الأستانة (اللورد بونسونبي) يحرض الباب العالي على التشدد في شروطه؛ مما أدى إلى إخفاق المفاوضة، وكانت إنجلترا لا تفتأ تضع العراقيل أمام سياسة محمد علي وتؤلب تركيا والدول الأوربية على مصر.

فمن ذلك أنها توصلت في سنة (١٨٣٨م) إلى عقد معاهدة تجارية مع تركيا، من شروطها إلغاء الاحتكار في جميع أنحاء السلطنة العثمانية، وكان المفهوم أن هذه المعاهدة تسري على مصر لأنها كانت إلى ذلك الحين جزءًا من السلطنة، وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة (نوفمبر سنة ١٨٣٨م) لأن ظاهرها يوافق المبادئ الإنسانية، ولم يكن من سبيل إلى رفض مثل هذه المعاهدة.

---

(١) «كادلفين وبارو» «سنتان من تاريخ الشرق» ج١، ص٢٢ و٤٦.

(٢) «كادلفين وبارو» «سنتان من تاريخ الشرق» ج١، ص٢٢ و٤٦.

وقد فطن محمد علي باشا إلى أن المقصود من وضعها هو إحراجه، فلم يعلن اعتراضه عليها ولا قبوله إياها، وتغيب عن مصر ذاهبًا إلى السودان في رحلة طويلة، وأظهر أنه ماض للبحث عن مناجم الذهب في فازوغلي وتنظيم حكومة السودان، ولكنه كان يقصد الغياب حتى لا يواجه طلبات وكلاء الدول.

وكانت تركيا تزداد تحفزًا لتجريد جيشها على سورية، ولم يكن غرضها استرجاع سورية فحسب؛ بل كانت ترمي إذا ما ظفرت بالجيش المصري أن تستمر في زحفها حتى تغزو مصر، وأخذت حركات الجيش العثماني تزداد نشاطًا بالقرب من التخوم السورية.

وفي غضون ذلك بذلت الدول الأوربية مساعي عدة لحل الخلاف بالطرق الودية بين الدولتين (مصر وتركيا) فأخفقت في مساعيها؛ لأنَّ إنجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على القتال.

خطة الترك في الزحف على الشام

حصَّن المصريون مضيق (كولك) من مضايق جبال (طوروس) تحصينًا منيعًا؛ إذ هو طريق الزحف على سوريا من ناحية الأناضول، فشيدوا فيه القلاع المحكمة، وركبوا فيها المدافع الضخمة على الأساليب الهندسية الحديثة، وبلغ عدد المدافع التي ركبها المصريون في قلاع المضيق ونواحيه (١١٥) مدفعًا[1].

وبلغت الحاميات المصرية في ولاية أدنة عشرة آلاف مقاتل، وأصبحت مواقع المصريين من المناعة بحيث صار من المتعذر أن يهاجمها الجيش التركي، فاعتزم قائده حافظ باشا أن يدع اجتياز هذه المضايق ويزحف على الشام من جهات (أورفه) وديار بكر، حيث لا تفصلها عن الشام جبال وعرة كجبال طوروس.

---

(١) إحصاء المسيو أوديفير في مباحثه عن «الحكم المصري في بلاد القرمان» التي نشرت بمجلة الشرق الفرنسية سنة (١٨٦٨م) ص٥٩٠.

فلما علم إبراهيم باشا بهذه الخطة حشد معظم جنوده حول مدينة (حلب) ليرقب حركات الجيش التركي ويصد هجماته من كل طريق يجيء منه، وكانت طلائعه ترابط في عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية.

عبور الترك نهر الفرات

ولما أتم حافظ باشا استعداده اعتزم عبور الفرات ليزحف على الشام، فعهد إلى إسماعيل باشا أحد قواده اجتياز هذا النهر عند بيرة جك[١] إلى عدوته اليمنى، فانتقل إسماعيل باشا إلى الشاطئ الأيمن يوم (٢١ إبريل سنة ١٨٣٩م)، ووصل هذا النبأ إلى إبراهيم باشا، فأرسل إلى والده بمصر يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك كما تدل الدلائل، وأخذ في الوقت نفسه يحشد الجنود في حلب ويزد موقفه مناعة في المدينة وما حولها، وأرسل الطلائع من العربان لاكتشاف حركات الجيش التركي.

إرسال محمد علي المدد إلى الشام

وكان محمد علي قد بلغه تقدم الجنود التركية نحو الحدود، فعلم أنها الحرب لا محالة، وأمر بجمع الجند وإنفاذهم إلى الشام ومعهم الذخائر، وعهد إلى وزير الحربية أحمد باشا المنكلي أن يلحق بإبراهيم باشا ليعاونه في الحرب المنتظرة، فكان سفر المنكلي باشا إعلانًا بقرب وقوع القتال، وقد علم وكلاء الدول بعزم المنكلي باشا على السفر فتدخل قنصل فرنسا العام[٢] لدى محمد علي لوقف سفر وزير الحربية حتى لا تستعر نار الحرب ثانية بين تركيا ومصر، فطلب إليه محمد علي أن تعطيه الدول موثقًا ألا يزحف الجيش التركي على الشام، وفي مقابل ذلك يمنع سفر وزير حربيته؛ بل ويستقدم إبراهيم باشا أيضًا. فضمن له القنصل الفرنسي ذلك، وارتكن على خطاب بهذا المعنى جاءه من سفير فرنسا بالأستانة، وكان الحديث بحضور قنصل النمسا، فالتفت إليه محمد علي وسأله: أتؤيد الرسائل الواردة له من السفير النمساوي ما يقوله قنصل فرنسا؟ فأجاب بالنفي، فلم

(١) وتسمى البير، وهي واقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات.

(٢) المسيو كوشليه.

يسع محمد علي إلا أن صارح القنصلين بأنه إزاء هذا التضارب يرى من واجبه أن يتخذ وسائل الأهبة والاحتياط، وأنفذ من فوره وزير الحربية إلى حلب، فوصل إليها بعد تسعة أيام من مغادرته مصر، وكانت الحرب قاب قوسين أو أدنى.

حركات الجيش التركي قبيل واقعة نصيبين

احتشدت طلائع الجيش التركي في قرية (نصيبين) وحولها، وهي بلدة واقعة في الأراضي العثمانية؛ لكنها على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية[١].

وأخذ حافظ باشا يستعد للزحف، فاحتلت طلائعه من القرى ما حول مدينة (عينتاب) واجتازت سرية من الجيش التركي نهر الساجور[٢]، وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا، فتخطت بذلك الحدود المرسومة في اتفاق (كوتاهية)، وتقدمت القوات

---

(١) تقع قرية «نصيبين» على الطريق الواصل بين بيرة جك والإسكندرونة، وموقعها غربي بيرة جك القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وهي غير «نصيبين» التي بالجزيرة. (هامش الطبعة الثالثة) - جرى نقاش حول اسم هذه الواقعة، هل هو (نصيبين) كما هو معروف ومشهور، أم هو (تزيب) كما تفش سنة (١٩٤٨م) على قاعدة تمثال إبراهيم باشا؛ لأجل أن نتبين وجه الحقيقة في هذه المسألة، يجب بداءة ذي بدء أن نتعرف موقع المعركة، فهي قد وقعت في قرية شمالي حلب على الطريق الواصل بين (بيرة جك) على نهر الفرات والإسكندرونة على البحر الأبيض المتوسط. انظر الخريطة. وهذه القرية بهذا التحديد هي (نصيبين). ووجه اللبس في هذا الصدد أن اسم نصيبين يطلق على بلدة مشهورة في الجزيرة، فظن بعضهم أنها ليست البلدة التي وقعت فيها المعركة؛ لأنها لم تقع حقًّا في الجزيرة، ولكن هذا اللبس يزول إذا تحققنا أن هذا الاسم (نصيبين) يطلق على ثلاثة بلدان، كما جاء في «معجم البلدان» لياقوت الحموي (جزء ثان من ص٩٢-٢٩٤) فهو يقول تحت كلمة (نصيبين): إنها مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، وأنها أيضًا قرية من قرى حلب، وأنها أيضًا مدينة على شاطئ الفرات تعرف بنصيبين الروم.

فالاسم الصحيح لهذه البلدان الثلاثة هو (نصيبين)، ولا محل لأن نستبدل به اسم نزيب الذي هو اسم إفرنجي أو تركي محرف عن نصيبين، ولم يرد في أي معجم من المعاجم العربية. ولا مبرر لأن نترك الاسم الأصلي العربي إلى الاسم المحرف.

(٢) نهر الساجور ينبع بالقرب من عينتاب ويمر بها، ويصب في الفرات، وهو الحد الفاصل بين أملاك مصر وتركيا. «انظر موقعه على الخريطة».

التركية فاحتلت قرية (تل باشر) بعد أن قتلوا وأسروا فريقًا من حاميتها التي كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادي.

وفي غضون ذلك كان إبراهيم باشا قد أرسل إلى أبيه نبأ تخطي الأتراك حدود اتفاق (كوتاهية) وسأله ما يأمر به حيال هذا الاعتداء، ولم ينتظر ورود جواب أبيه؛ بل قام بجيشه من حلب لإجبار الأتراك على إخلاء (تل باشر)، ولكن هؤلاء أخلوا البلدة أثر وصول الجنود المصرية (٣ يونية سنة ١٨٣٩م) ثم احتل الترك مدينة (عينتاب) وأخلتها الحامية المصرية.

وفي منتصف يونية ورد جواب محمد علي باشا يعهد إلى ابنه بألا يكتفي بإرجاع الأتراك إلى الحدود؛ بل عليه حربهم وسحق جيشهم ما داموا لم يراعوا العهود والمواثيق، فلما تلا إبراهيم باشا الجواب اطمأن إليه، فاصدر أوامره إلى قواده بالاستعداد لمهاجمة الجيش التركي الذي احتشد في (نصيبين).

قوات الطرفين

كان الجيش التركي يتألف من (٣٨) ألف مقاتل ويحتل مواقع حصينة، ولم يكن ينقصه القواد الأكفاء؛ لأن فريقًا من الضباط الألمان -وعلى رأسهم القائد الشهير البارون (دي مولتك) الذي انتصر فيما بعد على الفرنسيين في الحرب السبعينية- كانوا يرافقون القواد الترك، وهم الذين تولوا تحصين نصيبين حتى جعلوها من أمنع المواقع الحربية، ولو أن الأمر ترك كله للقواد الألمان لكان الحظ في معركة نصيبين متراوحًا بين الجيش المصري والتركي، ولكن القواد الأتراك -وعلى رأسهم حافظ باشا- لم يعملوا بنصائح (دي مولتك) وزملائه أثناء القتال، فدارت الدائرة على الجيش التركي.

أمَّا الجيش المصري فكان عدده أربعين ألف مقاتل[1]، فالجيشان كانا متقاربين من جهة العدد؛ لكن الجيش المصري كان يفوق جيش الترك في النظام وبراعة القيادة،

(١) إحصاء «كادلفين وبارو» في كتابهما «سنتان من تاريخ الشرق» ج١، ص٢٥٩.

ودربة جنوده، ومرانهم على القتال، وثقتهم بأنفسهم وبقوادهم الذين خاضوا وإياهم المعارك ورفعوا معًا علم النصر من قبل، فكان لهذه الميزة تأثير معنوي كبير في نفوس الجنود. هذا فضلًا عن أن الجيش المصري كان مؤلفًا من جنس واحد وهم المصريون، أما الجيش التركي فكان أخلاطًا من الأتراك والأكراد وسائر عناصر السلطنة العثمانية.

واقعة نصيبين (٢٤ يونية سنة ١٨٣٩م)

اعتزم إبراهيم باشا أن يتبع خطة الهجوم في واقعة (نصيبين)، فحشد الجيش مشاةً وركبانًا على ضفاف نهر (الساجور) الذي كان يفصل الحدود المصرية والتركية.

وتحرك يوم (٢٠ يونية سنة ١٨٣٩م) صوب قرية (مزار) ليتخذها قاعدة للهجوم.

وتقع هذه القرية جنوبي (نصيبين) بغرب، وهي على ساعتين من معسكر الجيش التركي. (انظر: الخريطة الواقعة ص٢٧٩).

لم يلق المصريون مقاومة تذكر في احتلال (مزار) فقد أخلتها الحامية التركية وانسحبت منها إلى معسكر الجيش في نصيبين، ورتب إبراهيم باشا مواقع جيشه في ضواحي (مزار) بالعدوة اليسرى من النهر المسمى باسمها.

وفي اليوم التالي (٢١ يونية) استقر رأي إبراهيم باشا على اكتشاف مواقع الأتراك أولًا لمعرفة الجهة الضعيفة فيهاجمهم فيها، فسار يصحبه سليمان باشا لارتياد هذا الاكتشاف، ومعهما قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة من العرب وأربعة ألايات من الفرسان، وبطاريتان من المدافع[1]، واقتربوا من مواقع الأتراك، فأنفذت القيادة التركية بعض كتائب من الفرسان النظاميين ومن الجنود غير النظامية (الباشبوزق) فاشتبكوا مع طلائع الجيش المصري في مناوشة ارتدوا على أثرها إلى مواقعهم، وتعقبهم المصريون، فأمكنهم اكتشاف التحصينات المنيعة التي أقامها الأتراك أمام (نصيبين)، فأدرك إبراهيم باشا أنه يتعذر -بل يستحيل- على الجيش المصري أن يستولي على

(١) إحصاء «كادلفين وبارو» في كتابهما «سنتان من تاريخ الشرق» ج١، ص٢٤٧.

معسكر الجيش التركي مواجهة، وعاد يجهد الفكرة في الخطة التي تكفل له الفوز على خصمه، فرأى أن خير وسيلة يتبعها هي الدوران حول مواقع الترك ليهاجمهم من الخلف.

وغداة هذا اليوم (٢٢ يونية) شرع إبراهيم باشا ينفذ هذه الخطة، وأخذ ينسحب من مواقعه الأولى استعدادًا لحركة الالتفاف.

أمَّا حافظ باشا فقد جمع مجلسًا حربيًّا ليقرر الخطة الواجب اتباعها حيال هذه المناورة، فكان رأي البارون «دي مولتك» وزملائه الألمان أن يهاجموا المصريين أثناء حركة الالتفاف وقبل أن ترسخ قدمهم في المواقع الجديدة؛ لكن حافظ باشا زملاءه الأتراك لم يقبلوا هذا الرأي السديد، وأبوا أن يغادورا مواقعهم واستحكاماتهم المنيعة ويغامروا بقواتهم في مهاجمة الجيش المصري في العراء وفي سهل مكشوف خال من الاستحكامات التي تحميهم، واستقر رأيهم على البقاء في معاقلهم بنصيبين.

أنفذ إبراهيم باشا حركة الالتفاف، فترك مواقعه الأولى، وسار مشرقًا، محاذيًا نهر مزار ثم نهر كرزين[1] بعد أن يلتقي هو ونهر مزار، ثم انعطف شمالًا حتى بلغ الطريق الموصل من حلب إلى بيرة جك والمفضي إلى ما وراء مواقع العدو في نصيبين، فسار في ذلك الطريق إلى أن بلغ قنطرة (هركون) القائمة على نهر كرزين، وأمر الجيش بعبور النهر على هذه القنطرة، ولو أن حافظ باشا فكر في مفاجأة الجيش المصري أثناء هذا العبور حيث كانت قواته موزعة على جانبي النهر لكان محتملًا أن تتغير مصاير الواقعة؛ لكن القيادة التركية كانت في غفلة من الجمود وعدم الكفاية، فتركت هذه الفرصة تفلت من يدها، وعبر الجيش المصري بأجمعه نهر (كرزين) ليلًا واحتشد على الضفة اليسرى خلف معسكر الجيش التركي، وبذلك واجهه من الجهة الضعيفة، فاضطر حافظ باشا أن يدير وجه جيشه ليواجه الجيش المصري في مواقعه الجديدة، وأقام استحكامات على عجل بدلًا من الاستحكامات القديمة التي كانت أمام وجهته

(١) نهر كرزين هو نهير يصب في الفرات، وتقع نصيبين على ضفته اليسرى.

القديمة، ولم يعد لها بعد أن تغير موقف الجيشين وانقضى يوم (٢٣ يونية) والجيشان يتأهبان للقتال.

وفي ليلة (٢٤ يونية سنة ١٨٣٩م) هاجم حافظ باشا المصريين في جنح الليل آملًا أن يأخذهم على غرة ويوقع الفشل في صفوفهم؛ ولكنه ارتدَّ بعد أن فتكت نيران المدافع المصرية بعدد كبير من جنوده، واستمر إبراهيم باشا تلك الليلة يتأهب لمهاجمة الأتراك في صبيحة الغد.

الواقعة

ففي صبيحة ذلك اليوم (٢٤ يونية)، بدأت المعركة طبقًا لخطة الهجوم التي رسمها إبراهيم باشا، وكان الجناح الأيمن للجيش التركي يرتكز على أخوار عميقة لا سبيل إلى اجتيازها، والقلب تحميه الاستحكامات التي أقامها الترك، أما الجناح الأيسر فكان يمتد إلى نصيبين ويتجاوزها قليلًا مرتكزًا إلى غابة من أشجار الزيتون، فرأى إبراهيم باشا أن نقطة الضعف إنما هي في هذه الناحية، فقرر مهاجمة الجناح الأيسر، وأمر بتقدم الصفوف المصرية لإنفاذ هذه الخطة.

كان في هذه الحركة خطر كبير على الجيش المصري؛ إذ لم يكن له من سبيل إلى مهاجمة الجيش التركي من هذه الناحية إلا إذا سار أمام جناحه الأيمن، ثم أمام القلب، وبذلك تتلقفه نيران الترك أثناء مسيره، ولكن القيادة التركية لم تغتنم هذه الفرصة، وبقي حافظ باشا غارا في معاقله لا يبدي حراكًا، وصمم على أن يدخر قوته إلى أن يهاجمه المصريون، وترك الجيش المصري ينتقل إلى مواقعه الجديدة، ولقد رتب إبراهيم باشا خطة الانتقال والهجوم بإحكام ودقة وفطنة استرعت إعجاب الضباط الأوربيين الذين كانوا في معسكر الجيش التركي، فقد شهدوا بأن حركات الجيش المصري كانت تسير طبقًا لخطط الجيوش الأوربية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية.

ومما دل على براعة إبراهيم باشا في وضع الخطط الحربية أنه رأى أكمة عالية (نمرة ٢٢ على الخريطة ص ٢٧٩) تجاه ميسرة الأتراك وقد أهملوا احتلالها، فأمر لفوره سليمان

باشا الفرنساوي الذي كان على ميمنة الجيش المصري باحتلال تلك الأكمة، فبادرها ومعه فريق من الفرسان والمدفعية ونصبوا عليها المدافع، فانكشفت أمام نيرانها مواقع الترك، وكانت هذه الحركة مفتاح النصر في واقعة نصيبين.

وقد تنبه الترك إلى خطئهم في إهمال تلك الأكمة، وحاولوا أن يحتلوها، ورماها حافظ باشا بقوة من فرسانه لإقصاء المصريين عنها، ولكنهم عجزوا على مقابلة النيران التي سلطها عليهم حماة الأكمة وأبطالها، فارتدوا عنها إلى مواقعهم الأولى.

ولما اكتمل الجيش المصري تجاه الجناح الأيسر أمر إبراهيم باشا بإطلاق المدافع على ميسرة الأتراك والهجوم عليهم، فتلقى الترك الهجوم بثبات وشجاعة، واشتد الضرب بالمدافع والبنادق بين الفريقين، واستمر نحو ساعة ونصف حمي فيها وطيس القتال واستحرَّت ناره.

وفي أثناء ذلك فرغت ذخيرة الجيش المصري، فانتظر جنود المدفعية وهدءوا ريثما ترد إليهم الذخيرة، بينما كان الترك يصبون عليهم نارًا حامية، فتقلقل المشاة من الجناح الأيمن المصري، وارتدوا إلى الوراء، فصدر الأمر إلى الفرسان بالهجوم، فأقدموا؛ لكنهم اضطروا إلى الارتداد أمام رصاص الترك، وتقهقروا هم والمشاة، ولكن إبراهيم باشا تمكن بعد جهد شديد من وقف تيار التقهقر.

وفي غضون ذلك وردت الذخائر للمدفعية، فصبت نيرانها على الترك، واشترك المشاة والفرسان والمدفعية في الضرب، إلى أن تزلزلت صفوف الجيش التركي والتوت أمام هجمات المصريين، وظهر الضعف في إطلاق مدافعهم، فأخذ الأكراد يفرون متقهقرين، فشدد إبراهيم باشا الهجوم على الميسرة، فلم يقو الترك على صد هذا الهجوم، ولجأوا إلى الفرار تاركين بنادقهم وذخيرتهم، فاحتل الجيش المصري مواقعهم، وغنم جميع مدافعهم وذخائرهم وخيامهم وكل ما فيها من العتاد والميرة؛ إذ لم يتمكن الترك من حمل شيء منها أثناء هزيمتهم، حتى أن حافظ باشا ترك خيمته المزخرفة، وفيها أوراقه وأوسمته؛ فكانت معركة نصيبين نصرًا مبينًا للجيش المصري.

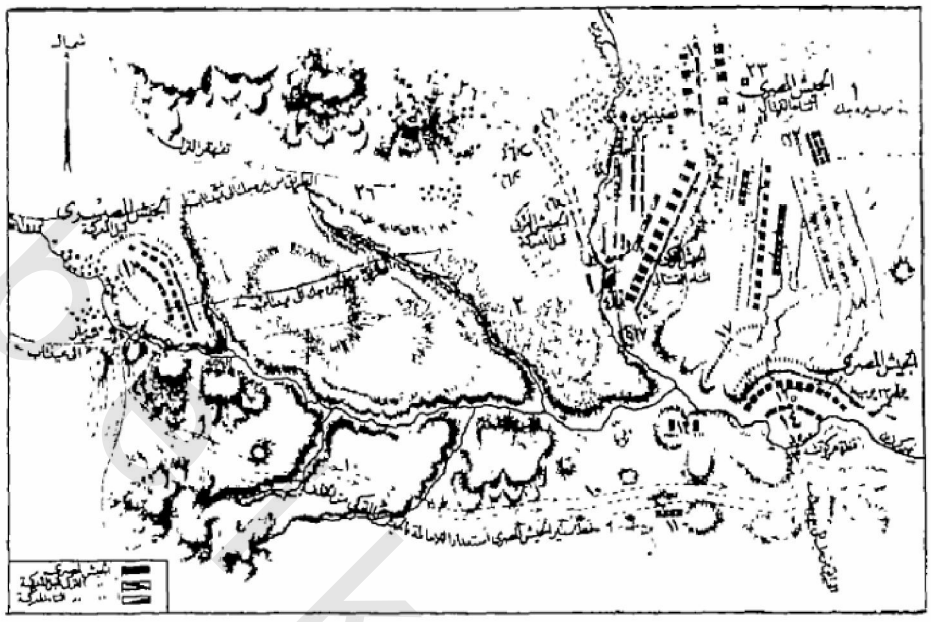

خريطة واقعة نصيبين (٢٤يونيه سنة ١٨٣٩) وفيها البيانات الآتية

١	موقع الجيش المصري يومي ٢٠ و٢١ يونية (على نهر مزار).
٢	حركة الاستطلاع التي قام بها إبراهيم باشا لاكتشاف مواقع الترك يوم (٢١ يونية).
٣، ٤، ٥	موقع الجيش التركي قبل المعركة (على شكل مثلث).
٦	استحكامات لحماية وجهة الجيش التركي.
٧	استحكامات لحماية ميسرة الجيش التركي.
٨	ألاي من المشاة الترك في أكمة محصنة تحمي الجناح الأيمن.
٩	بطارية من المدافع بالأكمة المذكورة.
١٠	خط سير الجيش المصري يوم (٢٢ يونية) وانتقاله من موقعه الأول على نهر مزار إلى موقعه الأخير استعدادًا للإحاطة بالجيش التركي من الخلف.
١١	ألايان من المشاة المصريين احتشدا على يمين الجيش المصري، ومعهما بطاريتان من المدافع لحمايته أثناء انتقاله إلى موقعه الجديد.

١٢	ألايان من المشاة والفرسان المصرية احتشدا على يسار الجيش للغرض المتقدم.
١٣	قنطرة هركون التي عبر عليها الجيش المصري نهر كرزين.
١٤	موقع الجيش المصري يوم (٢٣ يونية) على الضفة اليسرى لنهر كرزين بعد اجتيازه قنطرة هركون.
١٥	خيمة إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصري.
١٦	خيمة سليمان باشا الفرنساوي.
١٧	موقع المدافع التركية ليلة (٢٤ يونية) بعد عبور الجيش المصري نهر كرزين.
١٨	خط سير الجيش المصري يوم (٢٤ يونية) للإحاطة بالجيش التركي.
١٩، ٢٠	موقع الجيش التركي عند بدء القتال بعد أن أدار وجهه إلى الخلف استعدادًا لملاقاة الجيش المصري في موقعه الجديد.
٢١	استحكامات أقامها الترك أمام وجهة جيشهم.
٢٢	الأكمة التي قصد إليها المصريون للتسلط على مواقع الترك ونصبوا فيها المدافع الثقيلة.
٢٣	ألايان من المشاة المصريين، وأربع ألايات من الفرسان، وأربع بطاريات من المدافع الخفيفة في أقصى الميمنة لحماية هجوم الجناح الأيمن على مواقع الترك.
٢٤، ٢٥	موقع الاحتياطي المصري من المشاة والمدفعية الذين احتلوا الآكام أثناء تقهقر الترك.
٢٦	اتجاه تقهقر الترك.

نتائج الواقعة

بلغت خسائر الترك في معركة نصيبين نحو أربعة آلاف قتيل وجريح، وكان من قتلاهم بعض القواد والضباط، وأسر منهم بين اثني عشر ألف إلى خمسة عشر ألف أسير، واستولى المصريون على نحو عشرين ألف بندقية و(٤٤) مدفعًا، واستولوا في

اليوم التالي على (٣٠) مدفعًا في حصن (بيرة جك). وكذلك استولوا على خزانة الجيش التي لم يتمكن الترك من أخذها عند الهزيمة، وكان بها من النقد ما قيمته ستة ملايين فرنك.

أمَّا الجيش المصري فقد بلغت خسائره نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح، وهي خسارة عظيمة؛ ولكنها كانت فداء للنصر المبين الذي نالته مصر في هذه الواقعة.

قضت هذه الواقعة على قوة تركيا الحربية، وأنقذت مصر من الخطر الذي كان يتهددها من ناحية تركيا، وكان فيها أكبر انتصار حازه الجيش المصري في حروبه مع تركيا، وهي أعظم الوقائع التي خاض غمارها من جهة أهميتها الحربية ونتائجها السياسية، أما من الوجهة الحربية فقد رأيت أنها تفوق المعارك الأخرى في عظم الجهود والخسائر التي بذلت فيها، وأما من الوجهة السياسية فلأنها حفظت استقلال مصر، وكانت له بمثابة السياج الذي صانه من الخطر، فلو أن تركيا فازت في هذه المعركة لاستمرت في زحفها على سورية ثم على مصر، ولقضت على استقلال مصر وردتها ولاية تركية لا تمتاز عن سائر ولايات السلطنة العثمانية في شيء.

وهذه الواقعة تشبه أن تكون كواقعة (جيهاب) التي فازت فيها جيوش الثورة الفرنسية على الجيش النمساوي وأنقذت فرنسا من خطر الغارة عليها وصانت كيانها، وكذلك كان شأن واقعة (نصيبين) بالنسبة لمصر.

وكان وقع هذه المعركة أليمًا شديد المضض على تركيا؛ لأنها خاتمة الهزائم التي حاقت بجيوشها في معاركها المتعاقبة مع الجيش المصري.

وفاة السلطان محمود

توفي السلطان محمود في أول (يولية سنة ١٨٣٩م) قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه؛ إذ كان على فراش الموت، فأسلم الروح دون أن يعلم بالطامَّة التي حلت بالجيش التركي في تلك الواقعة الفاصلة، وخلف بعده السلطان عبد المجيد في الوقت الذي

تزلزلت فيه قوائم السلطنة من ضربات مصر، ولم تكن سن السلطان الجديد تتجاوز السابعة عشرة، فلم يدر كيف يأخذ في أمره ولا كيف يتجه بين العواصف التي هبت على عرشه.

تقدم إبراهيم باشا

أمَّا إبراهيم باشا فإنه استمر في تقدمه عقب انتصاره، واحتل (بيرة جك) على ضفة نهر الفرات اليسرى (ثم عينتاب) و(موعش) و(أورفه).

تسليم الأسطول التركي

وأعقب هذه الواقعة كارثة أخرى أصابت تركيا في أسطولها؛ وذلك أنه لما بدأت الحركات العدائية الأخيرة بين مصر وتركيا صدرت الأوامر للأسطول التركي بالتحرك من بوغاز الدردنيل بقيادة القبودان أحمد باشا فوزي لمنازلة العمارة المصرية، ولكن فرنسا وإنجلترا أرسلتا بعض السفن لمنع التصادم بين الأسطولين تنفيذًا للخطة التي كان عليها العمل بينهما من الحيلولة بين تصادم مصر وتركيا.

ولما هزم الجيش التركي في واقعة (نصيبين) وتولى السلطان عبد المجيد ورأى دعائم عرشه تتزلزل أمام فتوحات الجيش المصري، جنح للسلم، فبعث برسول يدعى (عاكف أفندي) إلى مصر يعرض على محمد علي باشا عقد هدنة يمكن في خلالها إجراء المفاوضات للاتفاق على حل يرضي الطرفين، وعهد إليه أن يأمر فوزي باشا قائد العمارة التركية أن يعود إلى الأستانة، ولكن فوزي باشا كان قلقًا على مركزه بعد موت السلطان محمود، إذ كان مقربًا لديه وله اختصاص به، فلما خلفه السلطان عبد المجيد عين خسروا باشا[1] صدرًا أعظم، وكان بينه وبين فوزي باشا عداء قديم، فعظمت وساوس فوزي باشا، وظن أن استدعاءه إلى الأستانة لم يكن إلا لغزله أو لقلته، وزين له وكيله عثمان باشا أن يلتجئ إلى محمد علي باشا خصم خسرو باشا القديم ويسلمه

(١) هو الذي كان واليًا لمصر سنة (١٨٠٣م) واشتهر بعدائه لمحمد علي.

الأسطول التركي بأكمله هدية خالصة؛ فينال منه المكافأة وحسن الجزاء، فأصغى فوزي باشا لهذه المشورة التي تنطوي في ذاتها على الخيانة والدناءة، وأقلع بالعمارة التركية، وخرج بها من الدردنيل ومضى إلى الإسكندرية، وكانت هذه العمارة على شأن من القوة، مؤلفة من تسع بوارج كبيرة (غلايين) وإحدى عشرة سفينة من نوع الفرقاطة، وخمس من نوع الكورفت، وعلى ظهرها (١٦١٠٧) من الملاحين، وألايان من الجنود يبلغ عددهم (٥,٠٠٠) فيكون الجميع (٢١,١٠٧).

فلما وصل فوزي باشا على رأس هذه العمارة إلى رودس أرسل وكيله إلى محمد علي باشا بمصر يخبره بعزمه، فابتهج محمد علي بهذه الفرصة السعيدة ابتهاجًا عظيمًا، وأنفذ رسولًا على السفينة البخارية (النيل) ليبلغه سروره مما أقدم عليه، ثم أقلعت الدوننمة العثمانية من رودس بقيادة فوزي باشا وبلغت الإسكندرية، وكانت الدوننمة المصرية خارج البوغاز لإجراء التمرينات البحرية بقيادة الأميرال مصطفى مطوش باشا، فدخلت الدوننمتان إلى الميناء معًا، وعدد سفنهما نحو خمسين سفينة حربية تقل نحو ثلاثين ألف مقاتل، وعليها نحو ثلاثة آلاف مدفع، فكان منظر دخول تلك العمارة الضخمة إلى ميناء الإسكندرية يملأ القلب جلالًا وروعة، وصارت مصر بهذه القوة البحرية المزدوجة أقوى دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط.

ولما علم جنود الأسطول العثماني بالأمر، وكان مكتومًا عنهم إلى ذلك اليوم، هرب بعضهم على الصنادل وعادوا إلى الأستانة.

وتسلم محمد علي باشا هذا الأسطول الضخم، فكان لهذا الحادث تأثير كبير في سير المسألة المصرية؛ لأن تسليم الأسطول التركي إلى مصر بعد انتصارها في معركة نصيبين جعل كفتها الراجحة على تركيا في البر والبحر، وبلغت مصر في ذلك الحين أوج قوتها على عهد محمد علي.